

# قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي



# قاسم أمين

تحرير المرأة والنهوض الإسلامي

الطبعة الأولى ١٩٨٨  
الطبعة الثانية ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢١٧٤ / ٨٨  
ISBN: 977-148-183-5

مكتبة جريرا

## دار الشروق

٨ شارع سينيوبية المصري  
مدينة نصر - القاهرة - مصر

تلفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: [dar@shorouk.com](mailto:dar@shorouk.com)

[www.shorouk.com](http://www.shorouk.com)

محمد عمارة

قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي

دارالشروق



## المحتويات

٧	تقديم
١٥	بطاقة حياة
٢٩	imately
٤٧	ال المجتمع الذي يشرّبه
٦١	التطور الفكري
٨٥	حرية المرأة
١٠٧	في التمدن الإسلامي
١٢٩	مصر .. والمصرية .. والمصريون
١٤١	في الوطنية
١٥٥	أعماله الفكرية
١٦١	كلمات
٢٠٥	المصادر

## تقديم

ليست الريادة هي المعيار الوحيد الذي يكسب المفكر والمصلح مكاناً عالياً وهاماً في حركة تطور المجتمع الذي يعيش فيه، وإن تكن لها ميزاتها ووزنها وتکاليفها التي تضفي على أصحابها الكثير من المجد والتقدير.

وفيما يتعلّق بارتياح المفكرين والمصلحين في شرقنا العربي الإسلامي، في العصر الحديث، لميدان الدعوة إلى تحرير المرأة المسلمة والشرقية، هناك خلاف قائم بين عدد من الذين عرضوا بالتاريخ لذلك الحدث الذي حاول به هؤلاء المفكرون والمصلحون أن يتطوّوا بالمرأة نطاق حريم العصور «المملوكية - العثمانية» المظلمة إلى اعتاب ورحاّب الاستنارة واليقظة والفتح التي أفاءها على الشرق عصر التنوير الذي بدأته مصر في عهد محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨م)، وقادت الشرق إلى ساحتاته منذ ذلك التاريخ.

فهناك من يرى أن فضل الريادة في هذه الدعوة، إلى تحرير المرأة، معقود لقاسم أمين، وأن «أول صيحة لهذا التحرير هي

صيحة قاسم أمين، في كتابه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)<sup>(١)</sup> ومؤدى هذا الرأى أن الدعوة إلى تحرير المرأة لم تعرفها مجتمعاتنا الشرقية، ومصر، بالذات قبل تاريخ صدور كتاب (تحرير المرأة) في سنة ١٨٩٩ م.

وهناك من يرى أن الأتراك العثمانيين كانوا أسبق من المصريين في سلوك هذه السبيل، وأن الأستانة قد ارتفعت فيها هذه الصيحة قبل القاهرة، وأن صحيفة (الحوائب) قد شهدت دعوة أصحابها أحمد فارس الشدياق (٤-١٨٨٨ م) إلى تحرير المرأة قبل أن يولد قاسم أمين . . . ويعملون سبق الأتراك إلى هذا الميدان «بكثرة اختلاطهم بالأجانب، وسباقهم في الاطلاع على أسباب التمدن الحديث»<sup>(٢)</sup>.

وإذا ما كان السؤال: أيهما أسبق في الدعوة لتحرير المرأة: أحمد فارس الشدياق، أم قاسم أمين؟ فإن البداية تعطى السبق للشدياق . . فهو قد عاش وما تقبل أن يكتب قاسم عن المرأة وتحريرها، وصحيفة (الحوائب) قد صدرت (١٨٦٠ م - ١٢٧٧ هـ) أي قبل مولد قاسم أمين بنحو أربع سنوات.

ولكتاب ن عشر على الحقيقة في قضية الريادة لهذه الدعوة إذا

(١) الدكتور محمد حسين هيكل (ترجم مصري وغربي) ص. ١٥٢، طبعة القاهرة، مطبعة مصر - بدون تاريخ.

(٢) «الهلال» تأييin قاسم أمين. انظر ص ٦ من تقديم الناشر لكتاب قاسم أمين «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ». طبعة الإسكندرية، سنة ١٩١٣ م.

نحن وفتنا عند هذه الحدود التي يرسمها أصحاب هذا الخلاف . . .  
ذلك أن هناك وقائع أخرى ، نراها هامة وضرورية لمن يريد  
الوصول إلى كلمة سواء في هذا الموضوع .

فأولاً: كانت مصر ، في ظل الدولة الحديثة التي قاد  
إنشاءها محمد علي ، أسبق إلى حركة التمدن الحديث بكل  
مناحيها وأشكالها . ومنها الدعوة لتحرير المرأة . من المجتمع  
العثماني ، ولقد بدأت انعكاسات التجربة المصرية تعمل عملها  
وتحدث تأثيراتها في الدولة العثمانية ، ذاتها ، حتى قيل : «إن  
النهاية العثمانية ، بكل فروعها ، مسبوقة في مصر ، ومقتبسة  
عنها<sup>(١)</sup> . . . . فالرriادة هنا لمصر لا للأئم العثمانيين . . . . وذلك إذا  
أخذنا قضية التمدن الحديث والدخول إلى عصر النهاية والتنوير  
على وجه الإجمال .

وثانياً: إذا نحن أردنا التاريخ لنشأة المدارس العربية والوطنية  
التي قامت لتعليم البنات بعض الفنون والعلوم ، وهي تلك التي  
أنشأها محمد علي للتعمير ، وغيره من الفنون . . . وهو تاريخ  
سابق على صدور (الجواب) في متنبيات ذلك القرن بثلاثة عقود  
تقريباً .

وإذا نحن نقينا في الفكر العصري الذي شهدته مصر في ظل  
تلك الدولة الحديثة ومجتمعها ، وجدنا الدعوة ، غير المباشرة ، إلى  
تحرير المرأة وتعليمها معلنة في كتاب رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ -

---

(١) الأعمال الكاملة لميد الرحمن الكواكبي ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد  
عمارة ، ص ٣٥٢ ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٥ .

١٨٧٣م) «تخلص الإبريز في تلخيص باريز» وتاريخ تأليفه سابق على أكتوبر سنة ١٨٣٠م، وطبعته الأولى قد صدرت سنة ١٨٣٤م<sup>(١)</sup> وهو قد ترجم إلى التركية في ذلك التاريخ.

كما نجد الدعوة إلى تقريب الفروق بين حق المرأة وحق الرجل في التعليم تظهر في مداولات (لجنة تنظيم التعليم) التي كان الطهطاوي عضواً بها، فتقترح هذه اللجنة في سنة ١٨٣٦م «العمل لتعليم البنات في مصر» تعليماً يتحلى بحدود الضرورات العملية التي كانت تحكم مناهج المدارس التي كانت قائمة للبنات في ذلك التاريخ.

وهكذا تسبق مصر ويسبق المصريون الآتراك في الدعوة إلى تعليم المرأة وتغيير أوضاعها.. ويسبق الطهطاوي الشدياق، وغيره في ارتياح هذا الميدان.. ثم يأتي كتابه (المرشد الأمين ل التربية البنات والبنين) الذي كتبه في بداية السبعينيات بتكليف من (ديوان المدارس) كي يدرس في مدارس البنات.. يأتي حاوياً للكثير من الآراء ووجهات النظر التي يمثل مجموعها أول بناء فكري شبه متكامل يكرسه مفكر عربي لقضية تحرير المرأة في عصرنا الحديث.

تلك هي قضية الريادة في هذا الميدان.. فهي لمصر محمد على، وليس لتركيا آل عثمان.. وهي للطهطاوي، وليس لأحمد فارس الشدياق أو قاسم أمين.

\* \* \*

---

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي «دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة»، ج ١ ص ٧٨، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٣.

ولكن . . . يبقى لقاسِم أمين ، في هذا الميدان ، ميزة ينفرد بها عن كل من عدائه من المفكرين والمصلحين الذين أسهموا بسهم في هذه السبيل . . . فكُل من عدا قاسِم أمين كان قد ينْهَى عن تحرير المرأة والنهوض بها أَمَّا من أمور كثيرة تناولوها فيما أبدعوا من أفكار وأثار . . . أَمَا قاسِم أمين فهو النَّوحيد من بين كل هؤلاء الذي وهب كل جهوده وجمعه أثاره - تقريباً - لهذه الدَّعوة ، حتى لقد ذهب عالماً عليها ورماً لها ، تداعى فضaiاها وحجج أصحابها إذا ذكر اسمه في أي وقت وأي مجال .

بل إن كل الجوانب الأخرى التي مثلت وتمثل القسمات المتعددة لفَكِرْ قاسِم أمين و موقفه الإصلاحي ، وهي الجوانب التي ستكتشف عنها دراستنا هذه للمرة الأولى ، إنما جاءت من خلال دراسته لهذه القضية ودعوته قومه لهذا الأمر الخطير .

• فمنهجه الاجتماعي في البحث . . . ومذهبة في رؤية التاريخ وتطور المجتمعات .

• واتساعه الاجتماعي والفكري . . . والمجتمع الذي يشرّبه .

• و موقفه من «التمدن الإسلامي» وفهمه لهذا التمدن .

• ودعوته في الإصلاح الاجتماعي . . . والتربيـة .

• و موقفه من تبلور الشخصية المصرية الحديثة . . . ومرآجه المعتدل في الوطنية . . . وتفسيـره لتجربة مصر الحديثة .

كل هذه القسمات ، وغيرها ، في فَكِرْ قاسِم أمين ومذهبـه

الإصلاحى ، قد تبدلت من خلال حديثه عن القضية الأساسية التي نذر نفسه لها . . وهى قضية المرأة الشرقية وال المسلمة ، والعمل على الانتقال بها من ظلمات جاهلية العصور الوسطى إلى نوار حضور العصر الحديث .

فإذا لم تكن رياضته رياضة سبق . . وإذا لم يكن سبقه سبق زمان وتاريخ . . فيبان له الريادة في تكريس كل جهوده الفكرى لهذه القضية قبل غيرها ، بل ودون غيرها . تقريراً من قصایا الإصلاح .

وإذا كانت هذه الدراسة التي نقدمها عن قاسم أمين مستضع ، من خلال فصولها القادمة ، فكر القارئ والباحث على حقائق وقصصات في فكره لم يلتفت إليها كثير من دارسيه . فإن الفضل في ذلك - بعد المنهج العلمي الذي نتناول به دراسة فكره - يعود إلى مجيء هذه الدراسة ثمرة للنظرية الشاملة لأعماله الفكرية الكاملة ، خصوصاً أنها الدراسة الأولى التي تهتم كثيراً برصد تطوره الفكرى . بعد أن يسرت لنا تلك المهمة ترجمة كتابه «المصريون» الذي رده على الندوة الفرنسية «دار كور» ، والذي كان أول كتاب يرثله قاسم أمين .

لقد ظل هذا الكتاب الهام بعيداً عن قراء العربية منذ صدوره بالفرنسية سنة 1894 م حتى تاريخ تقديمها بالعربية ، ضمن أعماله الكاملة سنة 1976 م . . ومن هنا كان الجديد الذي تقدمه هذه الدراسة عن فكر قاسم أمين ، مرتباً ونابعاً من الجديد الذي قدمته طبعتنا المحققة لأعماله الكاملة منذ خمس سنوات .

فالىوم قد أتبخت لقراء العربية نصوص قاسم أصين وأعماله  
ال الكاملة للمرة الأولى .

والىوم قد أتبخت للغة العربية فرصة امتلاك نص كتابه  
«المصريون» لأول مرة .

والىوم تناح لقراء العربية إمكانية رصد جوانب فكره وقسماته  
مذهب الإصلاحى .

وهي الأمور التي ترجو أن يكون قد حالفنا في المجازها  
ال توفيق .

الدكتور  
محمد عمارة

## بطاقة حياة

[إن الله الذي يجعل للحياة قيمة، ليست  
حجازة الذهب، ولا شرف النسب، ولا على  
المنصب، ولا شيئاً من الأشياء، التي تجري وراءها  
الناس عادة... وإنما هي أن يكون الإنسان قوة  
عاملة ذات أثر خالد في العالم...].

قاسم أمين

في هذه «البطاقة» تكشف المعالم الهامة والبارزة، في حياة قاسم أفين، وذلك حتى تكون سطورها «شريطاً» بعرض، في إيجاز شديد، حقائق هذه الحياة وتطورات صاحبها في حياته الخاصة وال العامة... فهى ليست «ترجمة» - بالمعنى المتعارف عليه - لحياته، وإنما هي «بطاقة» لهذه الحياة تكشف معالمها البارزة في عدد من النقاط :

- ١ -

ولد قاسم أفين لأب تركي عثماني وأم مصرية من صعيد مصر، فوالده محمد بك أفين، كان قبل مجده إلى مصر واستقراره بها، الوالي التركى على إقليم «كردستان» إحدى ولايات الدولة العثمانية في ذلك التاريخ.

وعندما ثارت «كردستان» ضد الدولة العثمانية، وأعلنت استقلالها وانفصالتها عن الأستانة، كان واليها محمد بك أفين في الأستانة، فضل بها، حتى منحه الدولة، عوضاً عن إمارته، إقطاعيات في مصر، بإقليم «البحيرة»، قرب مدينة «دمتنيور» فتشأت علاقته بمصر، وقرر الإقامة بها، وكان ذلك في بداية حكم الخديو إسماعيل.

\* وفي مصر تزوج محمد بك أمين إحدى بنات أسرة مصرية من صعيد مصر، هي ابنة أحمد بك خطاب، شقيق إبراهيم خطاب باشا.

\* وفي مصر كذلك التحق محمد بك أمين بالجيش المصري، على عهد الخديو إسماعيل، وفيه ارتقى حتى بلغ رتبة «أمير الای»، وشغل مركز قائد سلاح «المرابطين».

\* وهناك من يرجح أن تاريخ ميلاد قاسم أمين - وهو الابن الأكبر لهذه الأسرة - كان في أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ م<sup>(١)</sup>. وهناك خلاف في محل ميلاده.. هل هو الإسكندرية، أم صاحبة «طرة» القرية من القاهرة؟ ولعل الأم كانت تقيم بالإسكندرية، على حين كان عمل الأب في «طرة»، ومن هنا نشأت أسباباللبس والاختلاف.

\* وفي الإسكندرية قضى قاسم أمين أولى سنواته في التعليم.. فلقد دخل مدرسة «رأس التين» الابتدائية، وكانت يومئذ مدرسة أبناء الأرستقراطية من أبناء الأئراك والشركس والأتراك.

وبعد حصول قاسم على شهادة الابتدائية انتقلت الأسرة من الإسكندرية، واستقر بها المقام في القاهرة، وسكتت في حي

(١) يخصى كل من سركيس في «معجم المطبوعات العربية والمغربية» ومحمد رضا كحالة في «معجم المؤلفين» والموسوعة العربية الميسرة في تجديف سنة ميلاده، فيجعلونها سنة ١٨٦٥ م. ولكن المؤرخ كلبي في «الأعلام»، وكذلك كتاب ترجمته وأصدقاؤه ومعاصروه يجعلونها سنة ١٨٦٣ م.

الأستقرائية القاهرية يومئذ، حتى «الخلمية». . . فالتحق قاسم بالمدرسة التجهيزية - الخديوية - والمدارس التجهيزية في ذلك العصر تقبال المدارس الثانوية هذه الأيام. . . وفي هذه المدرسة دخل قاسم أمين القسم الفرنسي:

\* وبعد المرحلة التجهيزية التحق قاسم بمدرسة الحقوق والإدارة - وهي مدرسة عليا كانت البديل لكلية الحقوق في غياب الجامعات - ومنها حصل على «الليسانس». وهو في العشرين من عمره، ١٨٨١م. . . وكان أول خريجها في ذلك العام.

\* وكان قاسم أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغاني في مدرسته الفكرية التي ازدهرت بمصر في ذلك التاريخ.

- ٤ -

\* اتجه قاسم أمين، بعد تخرجه وحصوله على الليسانس، إلى العمل بالمحاماة. . . وكانت لوالده صلات وثيقة مع المحامي الكبير مصطفى فهمي باشا - الذي تولى فيما بعد رئاسة الوزارة في ظل الاحتلال الإنجليزي لمصر - فالتحق قاسم بالعمل في مكتب مصطفى فهمي للمحاماة.

\* ولم تطل مدة عمل قاسم بمكتب مصطفى فهمي باشا للمحاماة. . . ففي نفس العام - ١٨٨١م - سافر في بعثة

دراسية إلى فرنسا، وهناك انضم في جامعة «مونبلييه»، وبعد دراسة استمرت فيها أربع سنوات أنهى دراسته القانونية بتفوق في سنة 1885 م.

\* وأثناء مقام قاسم أمين بباريس، حدثت بقصر أحد أحداث الثورة العربية التي قادها وشارك فيها عديد من تلامذة جمال الدين الأفغاني، والحزب الوطني الذي كونه بقصر سراً في أوائل السبعينيات. ثم انتهت هذه الثورة بالتدخل الإنجليزي المسلح، واحتلال إنجلترا مصر، ومحاكمة زعماء الثورة ونفيهم من البلاد.

\* ثم استقر المقام بالأفغاني - بعد ذلك إقامته الجبرية بالهند - وكذلك محمد عيده - بعد نفيه من مصر - استقر بهما المقام بباريس منذ سنة 1883 م، وهناك أصدر أصلاً موجلاً «العروة الوثقى» السري الذي انتشرت فروعه من مصر إلى الهند، والذي قام أساساً لتأهيله لزحف الإنجليزى على الشرق، ولنراوة احتلالهم مصر بالذات.

وفي تلك الفترة عادت صولات قاسم أمين مع الأفغاني وصدرسته، فكان «المترجم» الخاصر بالإمام محمد عبده في باريس.

\* وفي فرنسا قرأ قاسم لفكري أوروبا الكبير، ومن بين الذين قرأ لهم: نيتشر (٤ - ١٨٤٠ - ١٩٠٠ م) وداروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) وماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م).

وفي فرنسا كذلك حاول قاسم أمين الاقتراب من المجتمع الفرنسي واقامة الصلات الوثيقة مع نمط حياة الفرنسيين الاجتماعي . . غير أن طبيعته الشرقية الخجولة وسمة الانعزالية التي ميزت شخصيته لم تتمكنه من الذهاب بعيداً في هذا المضمار .

فهناك صداقه، بل وحب، قد ثابته وبين «سلافا» تلك الفتاة الفرنسية التي زاملته في الدراسة بجامعة مونبلييه . . ولكن هذه الصداقه وذلك الحب قد ظل «رومانسيًا»، وكانت أهم اثاره تلك المشاعر النبيلة التي بدأت تتوارد في نفس قاسم نحو المرأة منذ ذلك الحين، وتلك الأحلام الوردية التي بدأت وظلت تراوده عن قيام المرأة بدور البوحى والحافظ المساعد في حياة الرجل . . ومن ثم المجتمع، بدلاً من يقائهما فيبدأ يشد خطو الرجل والأمة إلى الوراء . . نقد بدأ يحمل بالإنسانة التي تجمع بين جمال الأنثى وعقل الرجل !

كما وقف هذا الرجل الشرقي وتلك المحافظة والانعزالية، اللذان تحملت بهما طبيعة قاسم أمين، حائلاً بينه وبين الانسجام مع صرح ذلك المجتمع، وما كان لرجاله بنائه من علاقات لم تكن مستساغة عند أغلب الشرقيين الذين ذهبوا إلى باريس في ذلك التاريخ .

فقاسم ذهب إلى باريس بعد رحلة الطهطاوى إليها بخمسة وخمسين عاماً، والثاني كان شيخاً أزهرياً، وواعظاً بالجيش، وإمام الدين للبعثة الدراسية التي ذهبت تتعلم هناك . . ومع فارق

الزمن وفارق الثقافة والبيئة . . فقد كان الطهطاوي أكثر تقبلاً وتفهماً لعادات الفرنسيين الاجتماعية وعلاقتهم الأسرية، وأقل محافظة في تقييمه لخلافتهم واحتلاط رجالهم بنسائهم من قاسم أمين .

فالطهطاوى ينفي أن يكون سفور المرأة الفرنسية «خضيماً، بالتبغية والختم، إلى التبذل والخروج عن مقتضيات العفاف . . . فالفرنسيون يحافظون - مثلاً - على «العرض» ويسموه شرفاً، بل «ويقسمون به عند المهمات، وإذا عاهدوا عليه، وفروا بعهودهم» . . . «هم مثل العرب في هذا الأمر . . . أمّا حدوث «اللخبطة» - كما يقول - بالنسبة لعفة النساء، فليس مبعثه السفور أو الاختلاط، بل ولا شيء العشق في المجتمع الفرنسي، لأن مثلاً «العفة» أو «اللخبطة» إنما يعود إلى «التربية الحيدة أو الحسية، والتعمود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك في المحبة، والاتمام بين الزوجين» . . . ومن ثم فإن الفرنسيين «يقولون لهم دناءة النساء» فيما يتعلق بعلاقة الرجال مع النساء! (11).

تلك كانت انطباعات الطهطاوى عن هذا الجانب من جوانب المجتمع الفرنسي .

أما قاسم أمين فإنه كان أكثر تحفظاً في التقييم لهذا الجانب من حياة الفرنسيين، فهو يكتب عنه فيقول: «. . . يضم المجتمع الأوروبي الرجال والنساء دائماً، فيسهل الاتصال بينهم، وتنشأ

(11) «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى»، ج 1، ص 109، 110.

فيما بينهم علاقات ألفة وصداقة وحب ، وهذا الاختلاط بين الجنسين في الاجتماعات يسعي عليها عذوبة ورقه ، فالسحر الذي تشيشه المرأة في كل مكان توجد فيه ، شئ ممتع ونفاذ كعطر الزهور . وفي مثل هذه الاجتماعات ينعم المرأة دائمًا بالمرح ، وغالبًا ما يتودد للغير ، ويخرج في النهاية مفعم القلب بالرضا<sup>١١</sup> .

ثم يستطرد متتحدثًا عن تجربته الذاتية مع هذا النمط من الحفلات الباريسية فيقول : « وقد أتيح لي تقدير هذا السحر الفريد ، وكان شأني شأن الآخرين في الإحساس بقدره ، وخاصة في وجود امرأة تجمع حصافة الفكر إلى جمال الجسد . وقد رفعت بي طبعتي الخجولة بين الأضطراب والخيرة أكثر من مرة ، غير أن هذا لم يقلل من حبي لهذه اللقاءات الشيقه التي يهتم فيها الجميع بخلق جو البهجة والاستمتاع به ! ... »<sup>١٢</sup> .

\* وفي صيف سنة ١٨٨٥ م عاد قاسم أمين إلى القاهرة ، و ذلك بعد أن عمل هناك مع أستاذه « الرنود » . عقب التخرج - عدة شهور .

- ٣ -

\* و يوم احتفال قاسم أمين بعيد ميلاده الثاني والعشرين - أول ديسمبر سنة ١٨٨٥ م - صدر قرار تعينه بالقضاء ، في النيابة

(١) «الأسماء الكاملة لقاسم أمين» . دراسة و تحقيق الدكتور محمد عماره . ج ١ . ص ٢٩٢ طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م

المختلطة . . فبدأ طريقه لتحقيق طموحه ، وحاصة ما يتعلق منه بثبات إجادة المصري ونديمة للأوزوري في تولي الوظائف العامة والنهوض بأعبائها . . وبوجه أخص في حفل مؤسسة قضائية وطنية تكون موضع ثقة المقيمين بصر ، أجانب ومصريين على حد سواء .

\* وبعد شهور من عودة قاسم إلى أرض الوطن توفي والده محمد بك آمين .

\* وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م نقل من النيابة المختلطة إلى قسم قضايا الحكومة .

\* وفي يونيو سنة ١٨٨٩ م رقى إلى منصب رئيس لنيابة «بني سويف» ، بصفته مصر . . وهناك بدأ يطبق مفاهيمه وأراءه في فلسفة العقاب ودوره في الإصلاح الاجتماعي ، فلقد وجد الكثيرين من الذين وضعتهم الإدارة الحكومية ظلماً ، في سجن «بني سويف» ، ففك قيود أغلبهم وأطلق سراحهم !

\* وفي سنة ١٨٩١ م انتقل رئيساً لنيابة «طنطا» . . حيث واجهته هناك حادثة هامة وقف إزاءها يبحث عن خيار بين ما يفرضه عليه القانون وما تدعوه إليه الوطينة والوفاء لمدرسة الأفغاني التي انتسب إلى فكرها وفتح رجاليها أخبار والإعجاب منذ عهد صباه .

فلقد وقع عبد الله نديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦ م) - أبرز رعماه الثورة العربية وأصلب قادتها - في قبضة الشرطة ، وذلك بعد اختفائه

أسطوري دام تسع سنوات .. وجئ به إلى رئيس الثيابة قاسم أمين؟ فاكرم لفاعة، وأعطاه مالاً من عنده، وهب له في محبسه أقصى ما يمكن من ظروف الرعاية والراحة .. ثم قرر أن يقوم بالسعى لدى المسؤولين في العاصمة كي يفرجوا عنه ويطلقوا سراحه، فسافر إلى القاهرة يلتزم له العفو .. وبعد حملة صحفية، تبنت هذا المطلب، قررت الوزارة العفو عن عبد الله نديم مع إبعاده إلى الشام في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩١ م، بعد منحة مبلغ مائة وخمسين جنيهاً

ونفس الصنف كان يكرره قاسم أمين مع الطلبة المقبوض عليهم في المظاهرات! بل كان يخفي بعضهم حتى يستصدر لهم العفو من السلطات!

\* وفي ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢ م عين قاسم أمين نائب قاض في محكمة الاستئناف .. ثم رقى بعد عامين من ذلك التاريخ إلى منصب مستشار، وكان يومناً في الخادية والثلاثين من عمره.

\* ولقد عرفت عنه، طوال مدة عمله بالقضاء، دعوته إلى جعل القضاء المعاشر والمحاكم الأهلية الوطنية جهة التقاضي والمحاكمة بالنسبة للأجانب الذين يعيشون بمصر - باستثناء أحوالهم الشخصية - وذلك حتى تزول الازدواجية القضائية التي فرضتها على مصر امتيازات الأجانب ونفيت الاستعمار.

\* وخارج نطاق العمل القضائي امتد نشاط قاسم أمين . . .  
فكتب في صحيفة «المؤيد» عدداً من المقالات دون توقيع . . .  
وأصدر كتابه «المصريون» - بالفرنسية - سنة ١٨٩٤ م . . يرد به  
هجوم الدوق الفرنسي «دار كور» على مصر والمصريين . . .  
كما أصدر «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩ م، و«المرأة الجديدة» سنة  
١٩٠٠ م . .

كذلك شارك في نشاط «الجمعية الخيرية الإسلامية»، وكانت  
تشتى المدارس للفقراء، وتهضي بضرورب من الخدمة  
والمساعدات للمعوزين والمنكوبين . .

وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ م تولى سكرتارية الاجتماع الذي  
عقد بمنزل سعد زغلول باشا . . والذى صدر عنه البيان الشهير  
الموجه للأمة بدعوهها للإسهام فى إنشاء الجامعة الأهلية المصرية . .  
وعندما تخلى سعد زغلول عن رئاسة اللجنة التى نظر بها أمر  
الدعوة لإنشاء الجامعة، بعد تعيينه ناظراً (وزيراً) للمعارف، تولى  
رئاسة اللجنة بدلاً منه قاسم أمين . . وكانت آخر أعماله العامة  
ذلك الخطاب الذى ألقاه «بالموفية»، بمنزل حسن زايد، عن  
الجامعة والتعليم الجامعى المرجو لمصر والمصريين . . فلقد ألقى  
خطابه في ١٥ أبريل سنة ١٩٠٨، وفارق الحياة فجأة بعد ذلك  
التاريخ بأسبوع، أى في ليلة ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨ م . . وكانت  
مصر تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة التى نهض فى سبيل قيامها  
بدور عظيم . .

\* أما منزل قاسم أمين وحياته الأسرية فلقد كان مثيسفين مع مزاجه الهدى وروحه الفنانة وإحساسه البرقيق . . فهو قد تزوج في سنة ١٨٩٤ م من زينب ، ابنة أمير البحر التركي أمين توفيق . . وكان صديقًا لوالد قاسم أمين . . وكانت قد أشرفت على تربية زوجته هذه ، في طفولتها وصباها ، مربية إنجليرية . . وكان قاسم يقضى مع زوجته ويخصها من وقته ساعتين يوميًّا ، وبشكل منتظم من الخامسة إلى السابعة مساءً !

ولقد أحب بيته : ( زينب ) التي أحضر لها مربية فرنسية . . وجلسن ، التي أحضر لها مربية إنجليرية .

\* أما مكتبة فكان تشغل من منزله ثلاثة غرف . . ومع كتبه كان يقضي ، يوميًّا ، بانتظام ، ثلات ساعات من السابعة حتى العاشرة مساءً !

\* أما إجازته الصيفية فكان يقضيها مع أسرته بتركيا ، حيث كان لوالد زوجته منزل هناك .

\* \* \*

هكذا كانت حياة قاسم أمين ، وكانت شخصيته . . فنان وأديب نحانحو الإصلاح الاجتماعي . . وفلا يحترم رأيه . . ويدافع عنه ياصرار ، ويتصدى لأعني الموجات وأعنف الأعاصير التي مسّتها له موقفه من قضية المرأة ودعونه إلى تحريرها ، بدءًا من تحريم

دخوله إلى قصر الخذلوب بعد إصدار «تحرير المرأة»، إلى النقد والتهجم والسباب والاتهامات التي كيلت له من أغلب فطاعات الفكر ودوائر الثقافة وجمهور الكتاب... إلى سعي فئات وأفراد من العامة والبلهاء والمنعصين إلى إزعاج حياته الأسرية الهدامة، ظنًا منهم أن دعوته إلى تحرير المرأة تبيح لهم اقتحام منزلة والمطلب إلى زوجته مخالطة من يريد الاختلاط!

ومع كل ذلك، وعثله كثير، عاش قاسم عمره القصير - بمقاييس السنوات - بروح الفنان، فأعطاه عمقاً وفتحه أبعاداً تخطت به حدود الزمن والسنوات.

وكما يقول الدكتور محمد حسين هيكل: لقد كانت «روح قاسم أمين روح أديب... كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة، التي لا تعرف الطمأنينة، ولا تستريح إلى السكون، وكانت الروح المشوقة التي لا تعرف الانزواء في ركن للبحث والتنقيب، حيث تنسى نفسها وتستبدل بكتها ما في حياة الكون وحركته من نشاط وجمال... بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تشكّر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيًا وإنها مَا أكثر ماتؤدي المباحث الجافة منطقًا وجدلاً... وكانت هذه المناظر تذكّر شعوره الخناس بجمال الحياة، وتدعوه إلى الحرص على متعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتع، وذلك لا يؤتاه إلا رجل فن جميل، لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة؛ بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم»<sup>(1)</sup>.

(1) «ترجم عصبية وغريبة»، جن ١٥٣

## قسمات المنهج الاجتماعي

[إن أهم عامل له أثر في حال الأمة هو: حالتها الاقتصادية... وهي لا تتغير بإرادة شخص أو مائة شخص، أو إصدار قانون أو مائة قانون.. بل بتغيير الأسباب التي أوجدها.

ولقد نظم الإسلام توزيع الثروة، وأعلن اشتراك الفقراء في ملكية أموال الأغنياء، فحل المشكلة الاجتماعية بنوع قريد من الجماعية، وانشراكيّة سامية سبقت أكثر النظم السياسية لوريا بأكثر من ألف عام.

إن النوع الإنساني، في كل مكان، هو نفسه، باختلافه ومواطنه ضعفه، وأيضاً بعظامته وزهوه.. والحركة المتمردة إلى جهة الترقى هي قانون الحياة الإنسانية.. ولن يقف ماضينا ولا حاضرنا حائلًا بيننا وبين التقدم حسب هذا القانون الذي يسود الكون كله...].

قاسم أمين

من المعالم الهامة والإيجابية في فكر قاسم أمين وأثاره أن روح الفنان والأديب التي ملكت عليه كيانه، وحددت رؤيته للكثير من القضايا والأشياء لم تطغ عنده على قوانين المنهج الاجتماعي الذي التزم إلى حد كبير في درس وعلاج قضايا الإصلاح التي عرض لها... بل إننا نستطيع أن نقول: إنه كان من أبرز كتابنا ومصلحتنا الذين وعوا بدور المنهج الاجتماعي في البحث وأهميته في قيادة الباحث والফكر إلى أسلم التنازع وأصدق المقولات.

فهو يرفض مسلك أولئك الباحثين والمصلحين الذين يكتفون من البضاعة بما هو نظري ومنمق وبراقي، بصرف النظر عن الواقع الذي يطبقون إصلاحاتهم فيه... وينتهي إلى عقم ذلك المذهب السهل الميسور لكل من يحسن التخطيط على الأوراق، ثم يدعوه إلى أن يكون الفكر وخطط الإصلاح مدرورة في ضوء إمكانات الواقع الذي ترجو له التغيير والتطویر... يقول:

«نحن نفهم أن رجلاً يعيش في عالم الخيال، يكتب في مكتبه على ورقه: أن ليس على النساء إلا أن يقرن في بيوتهن بحالات البال تحت كفالة وحماية الرجال!»

نحن نفهم ذلك، لأن الورق يتحمل كل شيء!

وإنما يجده الصعوبة رجل اعتاد أن يحل النظريات ويختبرها

بقياسها إلى الواقع، فإنه إذا أراد مثلاً أن يحصل لنفسه رأياً في: ما هي حقوق النساء التي نحن بصددها؟ يجب عليه:

أولاً: أن يسوق نظرة إلى الواقع التي تمر أمامه، أعني أن يطبق نظريته على الواقع وينصورها في ذهنه منفذة عمولاً بها في مدينة ثم في إقليم.. ذلك عمل ليس بالسهل، لأنه يحتاج إلى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة.

فإذا توفر له ذلك كنه لم يتيسر له أن يحكم في المسألة حكماً قاطعاً، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية، فلا تكون نتائجها إلا تقريرية، لذلك تردد داتماً على طريق البحث، لا يركن إلى ما وصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت.. ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل<sup>(١)</sup>.

فهذا النص الهام يحدد متطلبات المنهج الاجتماعي في البحث والدراسة:

- ١ - فلا بد من دراسة الواقع، قبل التخطيط.
- ٢ - ولا بد من أن يكون الواقع مثلاً في الذهن ونحن نضع التخطيط، مثلاً بمعطياته القائمة، ومثلاً متخبراً في حال تطبيق التخطيط عليه وتنفيذه فيه.
- ٣ - ولا بد أن تكون الدراسة والتصور شاملة ومحيطة بالواقع ككل، وبدءاً من الجزء وانتهاء بالكل.

(١) «الأعمال الكاملة لنقاش أمين» ج ٢ ص ١٦٢، ١٦٣.

٤ - ولا بد من اختبار مدى صدق المقدمات، لأنها ظنية وفرضية  
لا تشم المطلق والنهائي، بل النسبي والتقريري.

٥ - ولذلك كله فلا بد من أن يكون البحث عملاً مستمراً، كي  
نضع في اعتبار المعيقات الجديدة التي تشعرها دراسة الواقع  
بعد التطبيق، وهي المعيقات التي تفهم في اختبار صدق  
المقدمات، وتحدث التعديلات في النتائج التي يصل إليها  
الباحثون... فنسبة المعرفة هنا تتطلب من الباحث أن  
«لا يتأتى من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال وبظهوره  
العمل!».

وقد أسمى أمرين ثم يحدد هذا المنهج، لأنه نقله عن الفكر  
الأوروبي الذي درسه واستفاد منه... لم يقف عبد حذيف الفهيم  
والتقل، بل لقد طبق هذا المنهج في بحثه لكل القضايا الإصلاحية  
التي عرض لها.

فهو عندما قرأ هجوم «دوق داركور» على مصر والمصريين،  
انفعل غضباً حتى أصابه الحمى! ولم يجد علاجاً لمرضه إلا أن يزد  
هجوم الدوق... ولذلك خلع انتعالاته... بل وجاهد ليحدد من تأثير  
روابطه القومية والوطنية على فكره وتقديره لواقع مصر قدر  
الإمكان... وإن كان لم ينجح... وما كان له ولا لغيره أن ينجح في  
طلب ما هو مستحيل! لكنه حاول وبلغ قدرًا من النجاح حفته  
محاولته الواقعية هذه... وعبر عن منهجه الذي اهتم بدراسة  
الواقع، رغم الانفعال وحساسيات الموضوع، فقال: «ولقد

أطلت التأمل في أبناء وطني، بـالـلـقـدـ بـذـلـتـ جـهـدـاـ أـكـبـرـ مـاـ يـذـلـهـ  
الأـجـنـبـيـ فـيـ درـاسـتـهـمـ وـالـتـعـرـفـ عـلـيـهـمـ، وـأـعـنـقـدـ أـنـيـ تـجـمـعـتـ فـيـهـ أـنـ  
أـكـتـشـفـ أـعـمـاـقـ وـجـدـانـهـمـ<sup>(١)</sup>.

ووـعـىـ قـاسـمـ أـمـيـنـ بـقـرـرـةـ درـاسـةـ الـرـاـقـعـ وـتـحـكـيمـ معـطـيـاتـهـ فـيـ  
الـتـخـطـيـطـ، وـالـتـنـظـيـرـ هوـ الـذـيـ جـعـلـهـ يـفـرـقـ بـيـنـ الـأـبـحـاثـ الـجـادـةـ الـتـيـ  
تـسـتـحـقـ الـاحـتـرـامـ وـبـيـنـ الـانـطـبـاعـاتـ الـتـيـ يـكـتـبـهـاـ عـنـ مـصـرـ أوـلـشـكـ  
«ـالـسـيـاحـ»ـ الـعـابـرـونـ لـتـسـبـيلـ، وـالـبـاحـثـونـ - إـلـىـ جـانـبـ الـمـنـعـةـ - عـنـ  
الـفـصـصـ الـغـرـيـبـ وـالـنـبـأـ الـعـجـيـبـ، بـصـرـفـ النـظـرـ عـنـ الـحـقـيـقـةـ  
وـالـوـاقـعـ فـيـ الـمـجـتمـعـ الـذـيـ عـنـهـ يـكـتـبـوـنـ . . . فـيـصـفـ هـذـاـ الـمـلـونـ مـنـ  
الـتـأـلـيـفـ بـقـوـلـهـ: «ـإـنـيـ أـعـرـفـ، بـخـبـرـتـيـ، ذـلـكـ الـمـنـهـجـ الـذـيـ يـتـبـعـهـ  
الـأـوـرـوـبـيـوـنـ فـيـ تـأـلـيـفـ كـتـبـهـمـ، فـهـمـ يـعـتـمـدـونـ عـلـىـ مـاـ يـقـادـمـهـ لـهـمـ  
الـتـرـاجـمـةـ مـنـ مـوـادـ، وـكـلـمـاـ كـانـتـ هـذـهـ الـمـوـادـ رـهـيـةـ شـدـيـدـةـ الـغـرـابـةـ،  
كـلـمـاـ غـلـاـ ثـمـنـهـاـ، دـوـنـ أـنـ تـسـيـيـ مـاـ تـقـدـمـهـ هـذـهـ الـمـوـادـ مـنـ خـيـرـاـنـ  
لـنـجـاحـ الـكـابـ!ـ<sup>(٢)</sup>.

وـهـوـ فـيـ نـقـدـهـ لـكـابـ «ـدـوـقـ دـارـكـورـ»ـ عـنـ مـصـرـ وـالـمـصـرـيـيـنـ  
يـصـنـفـ هـذـاـ الـهـجـومـ فـيـ هـذـاـ الـمـلـونـ مـنـ الـوـانـ الـتـأـلـيـفـ، فـيـقـتـوـلـ:  
«ـإـنـيـ أـفـهـمـ عـامـ الـفـهـمـ دـوـقـ دـارـكـورـ، لـقـدـ أـعـضـيـ الـشـتـاءـ فـيـ رـحـلـةـ لـهـ  
تـنـفـصـهـاـ الـمـنـعـةـ!ـ وـطـالـمـ عـدـدـاـ مـنـ قـصـصـ كـتـابـ الـرـحـلـاتـ، بـعـهـمـاـ  
أـكـثـرـ بـيـنـ أـسـاءـوـاـ فـيـ كـتـابـاتـهـمـ إـنـيـ الـإـسـلـامـ - الـذـيـ يـكـرـهـهـ مـنـ أـعـمـاـقـ  
قـلـبـهـ - وـرـأـيـ مـنـ شـرـفـةـ فـنـدـقـ «ـنـيـوـ أـوـتـيلـ»ـ وـعـبـرـ نـافـذـةـ السـيـارـةـ الـتـيـ

(١) المصادر السابقة، جـ ١ صـ ٣٤٢

(٢) المصادر السابقة، جـ ١ صـ ٣٥٢

كان يتغول بها، مجتمعات من السكان الفقراء ذوي المظاهر  
البسيط، وبهذه الطريقة ألف كتابه!»<sup>(١)</sup>.

في هذا المنهج الذي يحمل دراسة الواقع هو منهج مرفوض،  
ولنتائجها غير فوضية. عن قسم أمين.

وفي الأفكار الإصلاحية التي تمنى قسم أمين تطبيقها في عالم  
الأدب العربي نطالع كذلك إيمانه بهذا المنهج الاجتماعي، مطبقاً  
على هذا المطلب . . فهو يدعو إلى العمل على إعادة المكانة المفقودة  
إلى هذا الأدب . . مكانته القدية التي كانت له عصر ازدهاره  
وازدهار حضارة أهله، وذلك بواسطة إصلاحين أساسيين هما :

١- أن يصبح هذا الأدب انعكاساً للتغيرات التي يشهدها الواقع  
العاصر.

٢- أن يطوع هذا الأدب لما جد في المجتمعات الجديدة من عادات  
تعبيرية لم يعرفها الأسلام، لا بد وأن تفرضي أساليب جديدة  
لالمعالجات .

وهو يعبر عن أفكاره تلك، فيقول : «إن الأمر في حاجة إلى  
عقل يستطيع بنشاطه ومواهبه أن يعيد للأدب مكانته التي كانت  
له قد يأها في المجتمعات الإسلامية، فيجعله يعكس هذه التغيرات  
التي ينبع منها وضمنها الحانى . . ويضعه لعادات جديدة»<sup>(٢)</sup>.

بل إن اهتمام قسم أمين - المنهجي - بالواقع لا يقف عند هذه

(١) المصدر السابق، جـ، ١، ص ٢٥٥.

(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٢٠.

الحدود، فهو يدعو - مثلاً في ميدان التربية - لأن تخطى حدود الفهم النظري للواقع، ومارس القيم ممارسة عملية.. يدعو إلى معرفة تكون ثمرة للخبرة والمارسة، ولا يكتفى أصحابها بالتحصيل والاستيعاب.. فيتحدث عن هذه القضية، من خلال نقده للواقع السائد في ميدان التربية عند المصريين، فيقول:

«من الأسف أن المصري لا يزال يظن أن تربية الطفل عبارة عن وضعه في المدرسة، وأنه متى علم ولده ما كان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه، مع أن التعليم هو في الحقيقة أقل فروع التربية شأنًا وفائدة».

نعم.. إنه قد يكون من النافع أن الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة، والفلسفة إذا شئت، ولو أني أعتقد أن التعليم النظري لا يفيد الغلام فائدة محسومة، خصوصاً إذا كان في السن التي يتلقى فيها العلوم العالية.

ولكن يجب على الآباء أن يعلموا أن التعليم وحده لا يفيد شيئاً إذا لم يكن مصحوباً ب التربية قوية.. وذلك بتعويذ الطفل لا على أن يفهم أن هذا الطيب طيب وذاك الخبيث خبيث، بل على أن يُعمل الطيب ما قدر ويجترب الخبيث ما استطاع؛ لأن إدراك الحسن حسناً والقبيح قبيحاً أمر سهل.. فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشيء المهم في فن التربية، ولكن كله ينحصر في اكتشاف وإظهار وتنمية جميع المليكتات الطيبة المخلوقة فينا، أو غرسها في نفوسنا، ونقوتها وإحيائها حتى تمسك في النفس بجذورها، فلا

تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبداً .. والتربيـة بهذا المعنى لا يمكن أن تكتسب في المدارس والمكتـاب والقراءـة والحفظ ، بل تجـب ممارستـها! <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

ولو أن قسمـات المـنهـج الـاجـتمـاعـي لـدى قـاسـمـ أـمـينـ وـقـفتـ عـنـدـ هـذـهـ المـلامـعـ وـالـحدـودـ لـكـانـ ذـلـكـ كـافـيـاـ فـيـ اـنـزـاعـ الـإـعـجابـ بـهـ وـالـإـكـيـارـ لـهـ ، خـصـوـصـاـ إـذـاـ نـحنـ رـاعـيـاـ عـصـرـهـ وـظـرـوفـ مـجـتمـعـهـ ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـقـفـ بـقـسـمـاتـ هـذـاـ المـنهـجـ عـنـدـ ذـلـكـ الـحدـودـ ، وـذـلـكـ لـسـبـبـ بـسـيـطـ وـعـمـيقـ ، هـوـ أـنـ ذـلـكـ المـنهـجـ الـاجـتمـاعـيـ ، وـالـذـىـ تـحـدـثـتـ عـنـهـ ، وـالـذـىـ آمـنـ بـهـ قـاسـمـ أـمـينـ وـطـبـقـهـ فـيـ دـرـاسـتـهـ لـقـضـابـاـ الـإـلـاصـاحـ الـتـىـ عـرـضـ لـهـ . . إـنـ هـذـاـ المـنهـجـ كـانـ ثـمـرـةـ لـإـيمـانـهـ الـعـلـمـيـ بـأـنـ الـكـوـنـ بـأـسـرـهـ إـنـاـ يـخـضـعـ لـنـظـامـ صـارـمـ وـلـحـكـمـهـ قـوـاتـنـ لـاـ تـخـتـلـفـ ثـمـرـاتـهـ . . فـهـنـاكـ وـحـدـةـ فـيـ قـوـاتـنـ الـكـوـنـ وـنـظـمـهـ . . وـهـنـاكـ وـحـدـةـ فـيـ قـوـاتـنـ تـطـوـرـ الـإـنـسـانـ عـبـرـ كـلـ الـعـصـورـ وـفـيـ كـلـ الـبـيـانـاتـ ، وـهـنـاكـ وـحـدـةـ فـيـ قـوـاتـنـ تـطـوـرـ الـمـجـتمـعـاتـ .

وـهـذـهـ النـظـرـةـ الـعـلـمـيـةـ تـدـخـلـ الـمـجـتمـعـاتـ الـشـرـقـيـةـ فـيـ دـاـثـرـةـ التـطـوـرـ الـبـشـرـىـ الـعـامـ ، وـتـرـفـضـ مـوـقـفـ أـوـلـىـكـ الـذـيـنـ يـرـيـدـونـ اـسـتـثـنـاءـ هـذـهـ الـمـجـتمـعـاتـ مـنـ التـأـثـرـ بـنـهـضـاتـ الـآخـرـيـنـ ، بـحـجـةـ الزـعـمـ بـأـنـهـاـ ذـاتـ خـصـوـصـيـةـ تـسـتـعـصـىـ عـلـىـ قـبـولـ الـقـوـاتـنـ الـعـامـةـ وـالـمـوـحـدـةـ لـتـقـضـيـ الـكـوـنـ وـالـمـجـتمـعـ وـالـإـنـسـانـ .

(١) المـصـدرـ السـابـقـ ، جـ ١ـ صـ ٢١٠ـ ٢١١ـ .

ووَقَاسِمُ الْأَمْيَنْ لَا يَطْرُحُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ كَأَمْرٍ فَخَرِيْ وَنَظَرِيْ مُجْرِدْ،  
وَإِنَّمَا يَنْهِيْ إِلَى أَنْ وَعِيْهَا هُوَ أَمْرٌ ضَرُورِيْ لَنَا، وَنَحْنُ نَعْالِجُ كِتَابَةَ  
الْتَّارِيْخِ وَتَفْسِيرِ أَحَدَاثِهِ، وَأَيْضًا وَنَحْنُ نَعْالِجُ قَضَائِيَا إِلَّا إِنْسَانَ  
الْمُعَاصِرِ وَإِصْلَاحَ عِبُوبِ مَجَتَّسِعَاتِهِ، فَكَمَا تَحْكُمُ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ  
الظَّواهِرُ الطَّبِيعِيَّةُ كَذَلِكَ فَيَانِ لِلظَّواهِرِ التَّارِيْخِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ  
وَالْإِنْسَانِيَّةِ قَوَانِينِهَا الَّتِي تَحْكُمُهَا، وَالَّتِي لَا يَدْرِي مَنْ وَعِيْهَا، لِنْ  
يَتَصَدِّيَ لِهَذِهِ الظَّواهِرِ بِالدِّرَاسَةِ وَالْعِلاجِ، يَقُولُ بِصَدَدِ الْحَدِيثِ  
عَنْ مَهْمَةِ الْمُؤْرِخِ وَالْمُصْلِحِ.. ذَلِكَ «أَنَّ الْمُؤْرِخَ يَشْرُحُ أَطْوَارَ أُمَّةٍ فِي  
زَمْنِ مَنْ عَمِرَهَا، يَتَعَرِّفُ أَخْلَاقَهَا وَعَوَادِهَا وَنَظَامَاتِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا  
وَرُوسَاطَاتِ مَعِيشَتِهَا، وَحَالَيْهَا الْاِقْتَصَادِيَّةُ وَالْسِّيَاسِيَّةُ، دَاخِلًا  
وَخَارِجًا، وَمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ دَرْجَةِ الْأَفْكَارِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَابِ  
وَالْفَنُونِ، وَبِيَنِ مِنْ خَلَالِ ذَلِكَ مَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ الْحَوَادِثِ  
الْمُهِمَّةِ.. وَلَا يَعْتَنِي إِلَّا قَبِيلًا بِسِرْدِ الْحَوَادِثِ.. كَمَا يَفْعَلُهُ مُؤْرِخُونَ -  
وَبِهَذِهِ الْطَّرِيقَةِ صَارَ التَّارِيْخُ مِنَ أَهْمِ الْعِلْمِوْنَ الَّتِي مَوْضِيْعُهَا  
الْإِنْسَانُ الْاجْتِمَاعِيُّ».

هَكَذَا بِحَدَّ الْمُتَهِجِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي كِتَابَةِ التَّارِيْخِ.. قَالَ يَسْتَعِثُ  
الْحَوَادِثُ وَالْوَقَائِعُ هُوَ الْأَسْبَابُ، بَلْ هُوَ الْمُسَبَّبُاتُ، وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي  
تَثْمِرُ مَا نَسَمِيُّهُ «تَارِيْخًا» هُوَ الْأَحْوَانُ الْاِقْتَصَادِيَّةُ وَالْسِّيَاسِيَّةُ  
وَالْفَكُورِيَّةُ وَالْعَادَاتُ وَالْتَّقَالِيدُ وَرُوسَاطَاتِ الْمَعِيشَةِ... إِنَّمَا كِتَابَةُ  
الْتَّارِيْخِ كِرَكَامُ الْأَحَدَاثِ - عَلَى عَادَةِ مُؤْرِخِينَ، كَمَا يَقُولُ - فَيَهُرُ  
مَنْهِجُ خَاصِّيٍّ يَخْرُجُ التَّارِيْخَ عَنْ مَكَانِهِ الطَّبِيعِيِّ كَوَاحِدٍ «مِنْ أَهْمِ  
الْعِلْمِوْنَ الَّتِي مَوْضِيْعُهَا إِنْسَانُ الْاجْتِمَاعِيُّ!».

وكما يجب ذلك على المؤرخ، يجب أيضاً على الساسة والمصلحين وكل المشتغلين بالمسائل العامة... فكما يفعل المؤرخ في الماضي يفعل الكتاب المشتغلون بالأحوال العمومية في الحال، فيدرسون زمانهم درساً تاماً، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بحاضرهم وأخلاقهم وعراقتهم ومعتقداتهم وسياساتهم، حتى يتبيّن لهم ما هي عليه بكيفية لا تقبل الشك.

إن هذه الأمور إنما هي العلل التي أنتجهت تلك الحالة، وإن تغييرها لا يكون بالصدفة، وإنما هو بتغيير يحدث في تلك العوامل المؤثرة، إذ السبب والسبب دائمًا متلازمان، عقلاً وعادة، فني وجد أحدهما وجده الآخر حتماً، وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى في العالم كله، فليس في الكون شيء وجد بلا سبب، وأصلح أو خفي، معروف الآن أو يكشفه المستقبل».

وبعد هذا التأكيد على أن تطور المجتمعات وتغييرها إنما يحكمه قوانين، تتطلب تغيير الأسباب والقواعد المتحكمه إذا شئنا تغيير المسيرات والأبنية المعلوّة والتابعة - يتبّه قاسم أمين إلى أن خفاء هذا القانون في الضواهر الإنسانية لا يعني تخلّفه فيها، لأنّه عام، حتى وإن تغيّرت هذه الضواهر بأسباب لا تجعله واضحًا وجليلًا كما هو حاله في ظواهر الطبيعة.

إن هذا القانون الإلهي وإن كان لا يظهر بوضوح تام في علوم الهيئة الاجتماعية، كما هو ظاهر في العلوم الطبيعية:

أولاً: لأن معارفنا المختصة بالمجتمع الإنساني هي، في الحقيقة، في أول نشأتها، وعلى حدّاثة عهدها.

وثانيًا: لأنَّ احِادِةَ الاجْتِمَاعِيَّةِ لَا تَكُونُ مِنْ سَبِّبٍ وَاحِدٍ، بَلْ يُشْتَرِكُ فِي مُقْدِمَاتِهَا عَدَةُ أَسْبَابٍ مُّتَنَوِّعَةٍ.

وَثَالِثًا: لَأَنَّهَا تَظْهِرُ دَائِمًا آنَّهَا تَحْتَ إِرَادَتِنَا، وَأَنَّ لَنَا سُلْطَةٌ فِي إِيجَادِهَا وَتَعْدِيلِهَا.

وَلِكُنْ يَكُونُ مِنْ أَخْطَأِ الْجَسِيمِ أَنْ نَعْتَقِدُ أَنَّ الْجَسِيمَ الاجْتِمَاعِيَّ لَيْسَ خَاصَّاً لِذَلِكَ الْقَانُونِ الْعَامِ كَعِبَرِهِ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ يَسْتَطُرُدُ لِيُؤَكِّدَ عَلَىَ أَنَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ قَدْ قَرَرَهَا اللَّهُ فِي قُرْآنِهِ، فَيَذَكُرُ أَنَّ اِيَّهَا إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَرْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرَا مَا يَنْفَسُهُمْ<sup>(٢)</sup> (الرَّعد: ١١) هِيَ أَسَاسُ لِذَلِكَ الْقَانُونِ، وَبِهَا يَظْهِرُ الْقَارِئُ كَيْفَ تَوَافَقَتْ شَرِيعَاتُ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْفَضْلَيَّةِ، كَمَا تَنْتَقِلُ مَعَهُ دَائِمًا إِلَى كَانَ الْقَانُونُ بِشَوْهِنَاهُ رِجَالًا أَكْفَاءَ، يَخْدُمُونَهَا بِجَهَدٍ وَيَغْيِرُونَهَا بِأَصْفَالَةٍ وَإِدْرَاكٍ<sup>(٣)</sup>.

وَلَقَدْ كَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَؤْمِنَ قَاسِمُ الْأَمْمَيْنَ بِالْتَّطْوِيرِ وَالْتَّقْدِيمِ كَقَانُونِ عَالَمِيٍّ، لَيْسَ فِي نَطَاقِ الظَّواهِرِ الْطَّبِيعِيَّةِ فَقَطْ، كَمَا اسْتَهْرَ عَنْدَ تَشَارِلَرْ دَارِوِينَ (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، بَلْ وَفِي الظَّواهِرِ الْخَاصَّةِ بِالْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ التَّغْيِيرَ وَالْتَّحْوِلُ، بَلْ الْحُرْكَةَ الْمُسْتَمِرَةَ إِلَى جَهَةِ التَّرْفِيِّ، هِيَ قَانُونُ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ وَوَهَبَهَا أَعْظَمَ وَسَائِلِ الْاِرْتِقاءِ. وَبِهِذَا الْقَانُونِ خَرَجَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمُعِيشَةِ الْبَيْهِمِيَّةِ، الَّتِي لَا يَرِدُ عَلَيْهَا إِحْرَانُ الْمُتَوَحِشِينَ مِنْ سَكَانِ الْفَرِيقَيْنِ وَأَمْرِيْكَا، مِنْ وَصْفِهِمُ الْعُلَمَاءُ بِالْهِمْ

(١) المُصْدُرُ السَّابِقُ، جِهَادُ، صِ ٢٠٩.

فرد متمدنة، عندما شاهدوا أن المسافة بينهم وبين الحيوانات البهم أقل من المسافة التي بينهم وبين أناسٍ أمة متمدنة! <sup>(١)</sup>

ولقد استفاد قاسم أمين من إيجاده بقانون التطور، ووحدته وفاعلية الأزلية الأبدية، فاستخدم حقائقه أسلحة في الصراع ضد فكرية الغرب الاستعماري الذي حاول، في سبيل السيطرة على الاستغلال لها، أن يوهمنا أن قانون التطور والتقدم والارتفاع، في المجتمعات، إنما مجال صلاحياته وصلاحه هو المجتمعات الغربية المتقدمة، أما نحن الشرقيين فإننا ومجتمعاتنا خارجون عن ميدان تطبيق هذا القانون!

رد قاسم أمين هذه الفريدة عندما تحدث عن «أن تاريخ تأسيس الدول في العالم موضوع تأملات متصلة»، وهو يؤكد حقاً أن النوع الإنساني، في كل مكان، هو نفسه، ياخذاته ومواطن ضعفه وبوئسه، وأيضاً بعظمته وزهوه، والقانون الأبدى الذي يحول المادة يحول أحياناً البشر والأنظمة، ولا تستطيع قوة معاونة هذا القانون الذي لا مهرب منه، والذي يحكم حركة التقدم الشرقي، والإنسانية تعبر عن نفسها في كل مكان بنفس الطريقة، وتتبع نفس المسيرة.

وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرب، وستنتهي إلى الحرب. غير أنها فيما بين هاتين الفترتين متى هي على نفسها أن تعانى محن الاستبداد، الذي يهدى أنه ضروري لاختبارها، ما أسعد الدول التي يكتب لها، بعد هذه المحن، البقاء! <sup>(٢)</sup>

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٩

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٧

وقاسم أمين لم يكن بذلك يفند ترهات مفكري الغرب الاستعماريين وحدهم، بل وينقض حجج القوى الوطنية المحلية التي تغادى التطور على وهم أن بالإمكان إيقاف قانونه عن العمل، والعودة إلى الماضي أو الحفاظ على بقايا آثاره التي تشد المجتمعات الشرقية إلى الوراء.

وهو في سبيل الرد على هؤلاء وهم يضيّقون مسائلاً ليقول: «... إنني - بكل حسنه - لا أرى لماذا يقف ماضينا - كما أرى - أو حاضرنا، كما يراه دوق داركور - مهما كان سينا، حائلاً بين وبين التقدم حسب قانون التطور نحو الكمال، وهو القانون الذي يسود حركة الكون كله»<sup>(1)</sup>».

وكم أثمر إيمان قاسم أمين بهذا النهج الاجتماعي تلك الشارة التي جعلته يرى الأساب في علاقتها بالسياسات، والتي جعلته يشير إلى السبيل العلمية المثلثي في دراسة ظواهر التاريخ والمجتمع والإنسان. . فيهي أيضاً قد أثمرت تحذيره من المحن بأن التغييرات التي تحدث في الأبنية العنيوية للظواهر الاجتماعية قادرة على إحداث تطور حقيقي في هذه الظواهر. . فتغير الواقع الاجتماعي هو الذي يحدث التغيير الحقيقي، وليس تغير القوانيين والقيادات هو الفاعل الحقيقي في تلك المجتمعات. . وعن هذه الحقيقة الهامة يقول: «إن حالة الأمة، في السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر، ليست حالة توجّد أو تغيير بحكم الصدفة، بل

---

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 256

إنها نتيجة لازمة لا تغير إلا إذا تغير ما ينفس هذه الأمة . . .  
والحالة الاجتماعية متى عُرف كيف وُجِدَت يُعرف كيف تزول . .  
فهي لا تغير أبداً إلا بحال آخر ، تعنى أن إرادة شخص أو مائة  
شخص أو إصدار قانون أو مائة قانون ، كل ذلك لا يؤثر فيها  
 بشيء محسوس (١) .

تلك كانت درجة إيان قاسم أمين بأهمية القاعدة المادية  
للظاهرة الاجتماعية . وكيف أن تغييرها هي السبيل الحقيقة  
لإحداث التغييرات الحقيقة والتطورات ذات القيمة التي يسعى  
الإنسان لإنجازها حتى يتطور مجتمعه وواقعه إلى الأمام .

\* \* \*

بال لقد خططا قاسم أمين في هذه السبيل ، إلى الإمام ، خططات  
أكثر تحديداً وأشد عملاً وأنفع في باب الإيمان بالنهج الاجتماعي  
في البحث والدرس والإصلاح . . فوجدناه يركز على أهمية  
العامل الاقتصادي والأسباب الاقتصادية ، ويزد دورها المميز في  
تحديد الصورة العامة للظاهرة ، ويركز على قعاليتها في التطور إذا  
ما شملها التغيير والتطوير .

فهو عندما فكر في كتابة مقالاته التي نشرها في «المؤيد» تحدى  
منهجه ، ونبهه على أن عينه ستكون أكثر ترتكيزاً على العوامل  
المؤثرة في المجتمع . بهدف إبقاء الضوء على السبيل الحقيقة  
للتغيير المنشود . . وبقصد حديثه على منهجه هذا كتب يقول :

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٠

.. شرعت في هذا العمل .. باحثاً عن حالتنا الراهنة، لا من جهة السياسة، فإني لم استغلاً بها إلا من حيث كونني مصرياً أحب الوقوف على المحوادث التي تجري في وطني، وللسياسة الآن قائمون، وأحمد لله، بخدمتها واستخدامها أكثر مما يحتاج إليه الحال. بل من الجهات الأخرى، كالعيشة الاقتصادية والتربيية والعوائد والمدین ..<sup>(١)</sup>

فيه هنا يضع عامل الاقتصاد في "المعيشة الاقتصادية" قبل عوامل: التربية، والعوائد، والدين.

وفي مروطن آخر يزيد هذا الموقف حسماً ووضوحاً، عندما يقول: «إن أهم عامل له أثر في حال الأمة هي حالها الاقتصادية.. ومن الأسف هذه الحال الاقتصادية ليس في إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويدبرها كيف يشاء»<sup>(٢)</sup>.

وهو هنا يشير - بعد تقريره أن الحالة الاقتصادية هي أهم العوامل تأثيراً في حالة الأمة والمجتمع - إلى أن لهذا العامل قوانيين علمية التي لا بد من الرجوع إليها، لأن تصور تغييرها بالأهواء أو التصرفات الذاتية والعلوية أمر خارج عن الإمكان.

فإذا انتقل الحديث عن المرأة وجدناه ينبع إلى دور العامل الاقتصادي في، أو ينبع عنها إلى اهتمام، إن سلباً أو إيجاباً.

فـلـلـعـامـلـ الـاـقـتـصـادـيـ الدـورـ الـاـغـلـبـ فـيـ انـحرـافـ المـرـأـةـ الـاخـلـقـيـ

### ١١) المقدمة (البيانات والبيان)

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ٦٩

وتفريطها في عفتها وسلوكها المسلط المشن، ولذلك فإنه يمكن أن يقال: «إننا لو بحثنا عن السبب الذي قد يحمل تلك المرأة المسكينة التي تبذل نفسها في ظلام الليل لأول طالب.. وما أكبر هذه المذلة على المرأة.. لوجدناه في الأغلب شدة الحاجة إلى زهيد من الذهب والفضة.. . وقلما كان الباعث على ذلك الميل إلى تحصيل اللذة.. . (١)».

كما يحصر العلاقة بين الوضع الاقتصادي لطبقة من الطبقات و موقف هذه الطبقة من ظاهرة تعدد الزوجات مثلاً.. . فالتنوع لا ينتشر في الأوساط الريفية التي لا ينبع أهلها سايمد رمفيهم، كما يتشر في أوساط الأثرياء الذين ورثوا الثروة والجهل والشح والبحث عن اللذات.. . يقول قاسم أمين:

«وأستطيع أن أؤكد أن حالات تعدد الزوجات نادرة في مصر، ونتحدث عن الريف في البداية، فالفلاح متهمك بالزوجة الواحدة، بشكل جذري، وسبب هذا أنه يكسب ما يكاد ينقده من الموت جوعاً.. . أما في المدن فقد يبقى بعض رجال النظام القديم المتزوجين بأكثر من واحدة!» (٢).

فللتعدد، وجوداً وعدماً، قلة وكثرة، علاقة وثيقة بالوضع الاقتصادي لكل طبقة من الطبقات أو فئة من الفئات.

\* \* \*

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١

(٢) المصدر السابق ج ١، ص ٢٨٨

هكذا يكتشف لنا قاسم أمين عن مفكّر ومصلح امتاز بالإيجان والاستخدام لذلك النهج الاجتماعي الذي أعاده على دراسة المعضلات التي عرض لها بالدرس والإصلاح.

فهو قد أكد على ضرورة الربط بين الفرض والآفكار والنظريات وبين الواقع والممارسة والتطبيق. وذهب في ذلك مذاهب، تكشف عن عمق وأصالة علمية كبيرة.

وهو قد وعى القوانيين التي تحكم الظواهر، طبيعة كانت أو اجتماعية أو إنسانية. واستخدم وعيه في تسييد خطاه كباحث ومصلح، وفي رشيه الأعداء الذين كانوا يناصبونه وخطنه وأمته العداء.

وهو، أخيراً، قد أدرك أهمية القاعدة المادية للمجتمع وحياته الاقتصادية على وجه الخصوص، ودور هذه الحالة في آية عملية للتغيير أو التطوير، يراد بها الانتقال بهذا المجتمع خطوة أو خطوات إلى الأمام.

## المجتمع الذي يشربه

[إن التربية هي: رأس مال لا يفنى...]

وحياة كل أمة مربطة بمالها.. والتجارة  
هي علم الشروق الحقيقي... وليس الغرض أن  
يجمع الإناد المال حيًّا في المال، بل المراد أن  
يكون لديه طموح شريف إلى العلاء.

والاستبداد أصل كل فساد في الأخلاق.  
والحرية الحقيقة تحتمل إبداء كل رأي، ونشر  
كل مذهب، وترويج كل فكر..

نكم من الزمن يمر علينا قبل أن تبلغ هذه  
الدرجة من الحرية؟!]

فاسim أمين

كان قاسم أمين واحداً من المصلحين البارزين في مدرسة الاستنارة واليقظة والتنوير في مصر والشرق العربي والإسلامي، تلك المدرسة التي تكونت أول ما تكونت يحصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ورائداتها هو رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣ م).

وكان الموقف الاجتماعي لهذه المدرسة يستهدف التغريب بالمجتمع من مرحلة الإقطاع، والانتقال به إلى المرحلة البورجوازية، بكل ما تعني هذه المرحلة من استنارة ومواءمة بين تدين الشرق وعلمانية الغرب وعقلانيته - مستفيدين في ذلك بما للإسلام من مواقف ومبادئ تتصدر للعقل وترفض الكهنوت والسلطة الدينية - وبكل ما تعني هذه المرحلة البورجوازية كذلك من إعلاء شأن «العمل» ونقد لقيم البطل التي تميزت بها مجتمعات الإقطاع وكبار الملوك، والدعوة إلى إشاعة التنافس والطموح، وتنبيه الناس إلى أهمية التجارة والصناعة وتكوين الشركات، وخوض غمار المنافسة والمنفاهفة في هذه الميادين ضد أوروبا التي كانت تزحف لنهب ثروات المجتمعات الشرقية، سواء في صورة شركات وجاليات ومقامريين، أو في

ظل جيروش وسلطات الاحتلال تحكمي وتفتن ذلك التهاب والاستزاف<sup>(١)</sup>.

ومن هنا، فإننا نجد لدى مصلحي مدرسة التتوير هذه، عندما يكون حديثهم عن الموقف الاجتماعي، قاسماً مشيناً كما يتمثل في أمرين محددين:

أولهما: نقد بقايا المجتمع الإقطاعي القائم، وتسويه قيمه، والازدراء على الأعراف التي سادت مجتمعات كبار المالك. . . وكان كثير منهم يصر يومئذ من المتمهرين والشرائكة والآتراك.

وثانيهما: الدعوة إلى إحلال قيم المجتمع البورجوازي - وكانت هي الأكثر تقدماً بالنسبة لمجتمع الإقطاع وكبار المالك - الدعوة إلى إحلالها كبديل لقيم المجتمع القديم.

ونحن إذا نظرنا في الفكر الاجتماعي لقاسمين، وبحثنا عن نوعية المجتمع الذي يشربه مواطنه، وجدناه يدعو إلى هذين الآهرين المحددين بوضوح وجلاء.

فهو يوجه نقده إلى المجتمع القائم، ويعيب عليه ضعف ضيقه البورجوازية، التجارية والصناعية فيه، ويسفه من الهالات التي بها، هذا المجتمع فتنة الموظفين، لأنهم بلا سند اقتصادي يضمن لهم لقمة العيش إذا ما تأخرت عنهم المرتبات! ومن ثم فلا دور لهم في الإنتاج والتطور الاقتصادي للمجتمع الذي يخدمون

---

(١) انظر الفصل الذي كتباه عن الفكر الاجتماعي لرفاعة الضيغوفي في تقدمنا لأعماله الكاملة، ج ١، ص ٢٠٠ - ٢٧٥.

حكومته . . ويرجعه سهامه إلى التوضع المزري لطبقة كبار الملاك الذي أغرقوا أنفسهم في التبطل وكبلوا طاقاتهم بالسفة والتبذير بعد أن آخر قوا امتلكاتهم الزراعية في الدبون .

يرجعه قاسم أمين انتقاداته هذه ، فيقول :

إن مصر بلدة فقيرة جداً ، نصف أهلها ، وهم الفلاحون . يعيشون بالشىء ، الناقم الذي يقى الحى من الموت جوعاً ، والنصف الآخر ينقسم إلى فئتين :

الأول : يشمل التجار والصناع ، . وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه : أنه صالح ملىء !

والآخر : يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات ، وهم الطبقة المظاهرة بحلة اليسار ، نوعاً ما ، في معيشتهم ، ولكن أغلبهم إن حيل بينهم وبين مرتباتهم شهراً واحداً وقعوا في العسرة والضنك الشديد !

أما أرباب الأطيان ، من الذوات والعمد والمشائخ والأعيان في البلاد ، فحالهم كحال «راييل» ، المؤلف الفرنسي المشهور إذ قال في وصيته : «إنى لا أملك شيئاً ، وعلى ديوبن كثيرة ، وأوصى بحقيقة ما أملك للفقراء !! والبلد الذي يكون أهله فقراء ، مثلك ، لا يمكنه ، مدام فقراء ، أن يفعل خيراً في المستقبل ، لأن حياة كل مملكة مرتبطة باليتها ، إذ بالمال يتم كل شيء ، وبغير المال لا يتم شيء مطلقاً !»<sup>(1)</sup>

(1) المصدر السابق ، ج 1 ج 142 ، 141

وفي موضع آخر، يسلط هجومه على قيم الكسل والتسطير والزهو والتواكل التي تسود المجتمع القديم، ويعمل التشار هذه القيم المناهضة للطموح والمنافسة بسيادة الاستبداد السياسي الذي قهر ملوكات الناس وكره إليهم استثمار طاقاتهم، عندما يقروا أن المستبدون هم الذين يجنون ثمار الطموح والاجتهاد، وساعدوا الاستبداد في ذلك سوء التربية وانتشار الفكر الضار والمعوق لتطور المجتمعات.

يتحدث قاسم أمين في ذلك عندما يعرض لمكان الإنسان المصري من «العمل» و«الطموح» فيقول: «إن المصري طماع (طموح) كغيره، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه، فهو إذن يحب أن تطأه السماء ذهباً وأن تتبه الأرض فضة، يحب أن يكون أغنى الناس، على شرط أن لا يتعب جسمه ولا يجهد فكره والسبب في سقوطه هذا أمران:

الأول: سوء معاملة الحكومات السابقة له، فإنها المدرّها وظلمها أضاعت الأمانة، الثقة التي يدوّنها لا تظهر الابتكارات الشخصية، فقد المصريون بذلك ملكة الإقدام على العمل والمخاطرة في الشغل.

والثاني: سوء تربيته، فإن عدم تشغيل الجسم وتحريك الأعضاء والجلوس ساعات، بل وأيام، على المكاتب والمكاتب والمكاتب، وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ، وترك النظر في الأشياء، مع شدة التمسك بالأقوال والأمثال المبسطة للهضم المميت للعزائم.

ونكرار سماع الفحصوص والأحاديث التي وضعت في الأصل  
لتبليغ الفقير وإزالته الأحزان عن الضعفاء قليلاً الخول والخيالة . .  
ولكن غشيتنا جهالتنا ، وأفيناها قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا  
فشرناها وروجناها ، وحشتناها ووشناها ، حتى تشربت بها  
أرواحنا وعقلنا ! )<sup>١)</sup> .

\* \* \*

وبدلاً من هذه القيم التي كانت لها السيادة والانتشار في ذلك  
المجتمع الإقطاعي ، بشر قاسم ، كغيره من مصلحى مدرسة  
التنوير ، بقيم المجتمع الجديد . . فهاجم الرزهق والقناعة والرضا  
بالقليل ، ودعا إلى الطموح وطلب المزيد والمزيد مما هو مشروع . .  
وقال وكتب مؤكداً أن «من البدئي أن الإنسان لا يستغل ليعيش  
فقط عيشة الكفاف ، لأنه لو كان هذا داعي الفطرة البشرية لما كان  
التنافس في المزيد . . فعلى الإنسان أن يسعى ، والخالة هذه ، لتحسين  
حاليه المادية والأدبية . فإن كان يكسب في اليوم فردين ، فعليه أن  
يجتهد في توصيلها إلى خمسة ، ثم إلى عشرة ، وهكذا .

وليس الغرض . . من تحسين الحال ، على هذه الطريقة ، أن  
يجمع الإنسان المال حبأ في المآل ، بل المراد أن يكون عند كل واحد  
طموح شريف إلى العلاه ، ولا يكون له ذلك إلا إذا سعى في  
استزادة موارد كسبه ، ليتمنى له أن يحسن غذاءه ومنيشه  
ومسكنه ، وأن يستعمل مما يزيد بعد ذلك على حاجاته المادية في

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٧ .

ترفيه عقله وتربيته أولاده بالرياضة والتعليم والسياحة، وأن يأتي من الأفعال النافعة لevity المجتمع مما يغبط غيره على فعله<sup>(١)</sup>.

وهي مواجهة القيم التي تمجّد التبطل والكسل والراحة، ينشر قاسم أمين «بالعمل» المتنع، وذلك من خلال نقده لكتاب الناشر على «العمل» كموثقين في الجهاز الحكومي، مع أنه «لأنه يذكر الناس أن الشرف والمجده لا يصادفان في طائفة الموثقين إلا بنسنة قليلة جداً، وأن كل إنسان قادر على أن يرثي نفسه بنفسه، وأن يعلم على أكبر علوك في الدنيا بفضيلته وعلمه، مثار أني ورأوا في اتفاقه من خدمة الحكومة إلا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تقصه شيئاً»<sup>(٢)</sup>.

والتعليم... يعلم قاسم أمين قومه بأنه أكثر من معارف مجردة تُطلب لذاتها، فإن له دوراً في تنمية الحياة... بل لقد تحدث عنه على أنه «استثمار» رابع بمقاييس «الاستثمارات» والأرباح... ومن هنا كان «كلي ما يصرف في سبيل التعليم والتربية، كالدراسة، مطالعة الكتب والجرائد والسياحة، لازم... إنه لا يجوز مطلقاً الاستغناء عن صرف الأموال في هذه السبيل، كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذي هو قوام الحياة... لأن التربية هي رأس المال لا يغنى، إنما المال فيما أقرب ضياعه، وخصوصاً في يد الغبي الجاهل»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

وكمما سبقت إشارتنا فلقد كانت قيم المجتمع الاقطاعي تعنى

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٦.

من قدر كبار الملوك بالوراثة، والآثرياء بالوراثة، وترفع شأنهم الأدبي والاجتماعي فوق شأن التجار والبورجوازية التجارية التي يحصل أهلها بأيديهم وينموون ثرواتهم وثروة المجتمع... ولذلك وجدنا قاسم أمين يسفه من فكر كبار الملوك ويُسخر من «شرفهم ونبلهم» المزعومين، ويعلى من قدر هذه البورجوازية التجارية التي كانت في دور النشأة والتكون، فبتحدث كيف «كان المصريون، إلى عهد غير بعيد، ينظرون إلى التجارة بعين الاحترام، ويحسبون أنها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار، وإلى الآن لا يزال هذا الرعم منبسطاً على عقول بعض الأصراء والمذوات الذين مني توشحوا الكساوى المؤشأة بالذهب، ووضعوا الشانات على صدورهم، وعلقوا في مناطقهم السيف تجر على جوانبهم إلى الأرض، تخيلوا أنهم من إنسانية أخرى أعلى من إنسانية هؤلاء التجار الذين يستغلون بأيديهم... . . وهم يرون كل خدمة غير «أميرية» وكل حرفة حرفة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هي أشياء لا يليق الاستغلال بها. ولهذا كله لم يستغل منها حتى الآن بالتجارة إلا قلة قليلة، برهنت على إرادة وإقدام وأصالة رأى تستحق عليها ثناء الأمة المصرية بأسرها.

ولو قارن أي إنسان، لم يعمه الجهل، بيرؤ هؤلاء التجار الذين دخلوا ميدان الحياة وبين أولئك الذين منيع ثروتهم، في الأغلب، العطاشا والمعنخ التي كانت تحيط عليهم بسبب كلمة «افتقت المزاج»، أو بسبب خدمة شخصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأي أي فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحقره الآخر!»<sup>(1)</sup>.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 198، 199.

ولقد كان فاسق أمير يعي جيداً أن ضعف البورجوازية التجارية  
اليونانية يترك المجال فسيحاً وسهلاً للنشاط التجاري الذي يقوم به  
الأجانب والنازحون إلى بلادنا، فأخذ يتبه قوله إلى قيمة التجارة  
كحربة، بل وكمعلم من أشرف العلوم، لدى الدول الأوروبية  
المتقدمة والاستعمارية، ويستقر أبناء وطنه لزاحمة الأوروبيين في  
هذا الميدان. فأهاب «بالآباء أن يعدوا أبناءهم إلى خالية الرصوب  
إلى السعادة وأن يفتحوا أمامهم أبواب الآمال». لأنها أبواب الثروة  
الحقيقة، وأن يعطوهم الوسائل للحصول عليها، وأول شيء  
يجب أن يلتفتوا إليه اليوم هو التجارة».

إن الأوروبيين يجمعون الأموال الهائلة.. «لأنهم فهموا أن  
التجارة هي علم الثروة، وهي علم حقيقي لا يقل في التفضيل عن  
أشرف العلوم، ويدرس في المدارس، ويتم بالاختبار والعمل<sup>(١)</sup>  
وأنك أيها المصري البطل، ابن البلاد، وأدرى بما فيها، ولتك فيها  
القريب والمحبيب، فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون إلى  
بلادنا؟!»<sup>(٢)</sup>

كما يلمس دور المصالح الاقتصادية، والتجارية منها خاصة،  
في الصراع العالمي بين الدول الاستعمارية المتافسة، وبينورث نبوغ  
السياسة بقيام حرب العافية الأولى، وذلك قبل حدوثها بـ يقرب  
من العشرين عاماً! وذلك عندما يكتب فيقول:

«إن ألم أوروبا قد وجئت التفاتها إلى المسائل الاقتصادية

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٥.

واعتناءها بها كل الاعتناء. فأنشأت نظارة - (وزارة) - لـ«التجارة، وللصناعة، وللمستعمرات»، وأكثرت من إنشاء المدارس التجارية والصناعية، وتهافتت على وسائل الاستعمار، وصارت كل أمة تراحم الأخرى في هذه السبيل. حتى أن رجال السياسة صاروا يعتبرون أنه لا بد من احرب يوماً بين إنجلترا وألمانيا، لأن المنافسة بين الامتين في جميع أنحاء الدنيا أوصلتهما إلى درجة اعتقاد أن إداهما لا يمكن أن تنتهي طبقها إلى إذا سحقت الأخرى !!.

ثم يستطرد ليقرع الأسماع بأن البلاد الضعيفة المستعمرة، ومنها مصر، هي موضوع التنافس والصراع المحتمل بين هذه القوى الاستعمارية، وأن التهشة هي سبب إفلاتها من مصيرها الآليم. فيقول: «إننا نحن المصريين لا نشعل لنا إلا التفرج على المتألفين»، والحقيقة إننا نحن موضوع تنازعهم، وسبب مشاكلهم، نحو النقطة الدسمة التي يوريد كل منهما - (الإنجليز والألمان) - أن يتلعلها في جوفه !!.

إن قاسم أمين يدعو إلى مجتمع يكثر فيه الآثياء الذين يحصلون ثرواتهم بالعمل ليلاً نهاراً، ويتمني لمجتمعه أن يكون مثل تلك المجتمعات التي توصلت إليها «إلى افتتاح الشروق»، وكثير فيها الأغنياء، المائيون الذين أصبحوا يتعاملون بالملايين، كما نحن نتعامل بالعشرات والمائات !!.

ثم يضيف متخفضاً على طرق جمع الثروة، فيتباهي أن طريق العمل يجب أن يكون هو السبيل لتحصيلها. قائلاً: «... ولكن

الشيء المهم، الذي أرجو ملاحظته، هو أن كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هي نتيجة عمل صاحبها، إنه يشغل ليكسب، يستغل دائمًا، يستغل في النهار، ويفكر في شغله بالليل! (١) .

فهو داعية للتطور الرأسمالي، ومناضل من أجل إزالة العوائق الإقطاعية من طريق هذا التطور، ومبشر بقيم المجتمع البورجوازي . . ولقد كان هذا الطريق، بالنسبة لمجتمعه وعصره، من أكثر الطرق قدرة على تنمية المجتمع وتطوره وتقدمه في ذلك التاريخ .

\*\*\*

وإذا كانت هذه هي الدعوة التي يشر بها قاسم أمين فيما يتعلق بالقواعد المادية للمجتمع الذي نده، والذي يشر به، فإنه قد صنع، في إطار البناء الفوقي للمجتمع، ما يتسق مع هذه الدعوة كل الأنساق . . فهو قد هاجم الاستبداد، الذي كان سمة للحكم الشرقي الفردي الإقطاعي . . ودعا إلى الحرية كما عرفتها المجتمعات البورجوازية الليبرالية في أوروبا، وطالب بالحياة السياسية في وقت مبكر جدًا، إذا ما قيس بالأصوات التي ارتفعت بهذا المطلب بعد هزيمة الثورة العرابية واحتلال الإنجليز للبلاد .

فهو يتحدث عن «أن الاستبداد أصل كل فساد في الأخلاق . . » (٢) .

ويطلب بأن تكون الحرية في الاعتقاد، وفي التعبير عن

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٠.

المعتقدات مصوّنة ومكفوّلة، بليل ومقديّة، مهمّا تكون الآراء والمعتقدات التي يعتنقها الناس ويعبرون عنها... يقول: «ذلك لأنّ الحرية الحقيقية تتحمّل إبداء كلّ رأي، ونشر كلّ مذهب، ونرويّح كلّ فكر... في البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأنه لا وطن له، ويُكفر بالله ورسله، ويُطعن في شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم، ويُهزا بالمبادئ التي تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية... يقول ويكتب ما شاء في ذلك، ولا يُفكّر أحد، ولو كان من ألدّ خصومه في الرأي، آن ينقصه شيئاً من احترامه لشخصه، حتى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح».

ثم يتساءل: «كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية؟»<sup>11</sup>

وهو ينبع إلى أمر هام جداً عندما يربط بين احترام المجتمع  
للفضيلة ومقتها للمرذلة وبين قيام رأي عام قوي في هذا المجتمع ،  
إذا لا يمكن أن تشير الفضيلة مطلوبه مرغوباً فيها ، والمرذلة مفروضة  
معضة إلى النفوس إلا إذا أحسن الناس بقوه حكم الرأي العام  
وسلامته ! ) ٢ (

فلا الموعظ والخطب، ولا الوصايا والتحذيرات بفاعلة شيئاً في قيمة في إعلاه شأن الفضيلة ومحض منزلة الرذيلة، كما يفعل ذلك قيام الرأي العام صاحب الحكم القرى والسليم.

<sup>١١</sup> المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٦٦٦

ثم يتوج قاسم أمين فكره الدائم وقراره بالدعوة إلى الارقاء من المجالس البلدية والمجلس التشريعي الاستشاري الذي أقامته سلطات الاحتلال الإنجليزي بديلاً عن المجلس النيابي الذي حلته بعد هزيمة الثورة العرابية. . يدعو قاسم أمين إلى الارقاء خطوات من هذا النظام الذي مرت عليه عشر سنوات، إلى نظام المجلس التشريعي البرلماني غير الاستشاري. . فيكتب في سنة ١٨٩٤م قائلاً: «لقد اكتسب اليوم المجلس التشريعي ثقة كبيرة لا يمكن نكرانها، حتى أن قادتنا يستلهمونه أفكارهم، كما باتت كثرة من المصريين المعتدلين، وأنا واحد منهم، فرى أن هذه السنوات العشر تمثل تدريباً كافياً، وأن مصر بعد أفتتها للتمثيل القومي قد أصبحت جديرة بأن يكون لها مجلس نواب لا يكون استشارياً. فقط، لقد نضجت مصر بما يتيح لها عمل هذا الإصلاح. غير أنها نوّد بالطبع نظاماً تكون فيه الغلبة للمعرفة الوعية، لا لكم العدد» .<sup>(١)</sup>

\* \* \*

هكذا فكر، وكتب قاسم أمين. . وهكذا نلتقي في آثاره الفكرية بما يؤكد أنه كان نافذاً للمجتمع الإقطاعي، مهاجحاً لقيمه. . عبشاً بقيم المجتمع البورجوازي، وداعياً إلى فتح الطريق أمام المجتمع المصري كي يدخل إلى رحابه، بعد أن يختلف وراء ظهره مجتمع الإقطاع وكبار الملاك.

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٤٥، ٣٤٦.

## التطور الفكري

[إن ديننا قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذي لا تدخله امرأة واحدة، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد، وذلك حماية لهما من الضعف وقضاء على مصدر الشر

\* ليس في الشريعة نص يوجب الحجاب وإنما هي عادة أخذناها عن بعض الأمم.. وأن النساء العرب والقرى المصرية، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا، أقل ميلاً للنساء من ساكنات المدن المحجبات.. إن المرأة التي تختلط الرجال تكون أبعد عن الأفكار البesta من المرأة المحجبة!

\* إنني لا أفهم أن يقيم الإنسان دعوى لحصول الطلاق، فخلافي الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتفاوض!

\* إن وضع الطلاق تحت سلطة القاضي أدى إلى تضييق دائرة، وأدى إلى المحافظة على نظام الزواج..!] .

قاسم أمين

عندما أصدر قاسم أمين كتاب *تحرير المرأة* سنة ١٨٩٩ م، أحدث ضجة كبيرة في المجتمع المصري والمجتمعات الشرقية، بل لعله قد أحدث أكبر وأهم معركة فكرية قامـت في الشرق من حول كتاب في القرن الذي ظهر فيه.

ولقد صدرت للرد عليه مجموعة كبيرة من الكتب، فضلاً عن الفصول والدراسات والمقالات، بل لقد صدرت صحف متخصصة تفرغت، تقريراً، للمجدل في موضوع الكتاب، إذ بالتأييد أو المعارضـة والتفنيـد.

ولقد كانت القضايا الرئيسية التي أثارـت الجدل أكثر من غيرها - من بين قضايا *تحرير المرأة* - هي :

١ - ما أثارـه الكتاب عن الحجاب الذي كان يسود عالم المرأة في ذلك الحين.

٢ - ما دعا إليه من ضرورة تقييد الحق المطلق الممنوح للرجل في إنهاء رابطة الزوجية بالطلاق.

٣ - نقدـه لنظام تعدد الزوجـات، والدعوة إلى ضبطـه وتقيـده.

وكان وراء الاهتمام بهذه القضايا، أكثر من غيرها، تشيلها لأهم عيوب النظام الأسري السائد، ولأبرز مشاكل المرأة

الشرفية، والأخطر القيود التي تحد من إمكانيات تطورها وتحررها وكذلك - وهو هام جداً - العلاقة الوثيقة بين هذه القضايا، والبحث فيها، وبين الشريعة الإسلامية. ذلك أن الجدل حول آية قضية ذات علاقة بالدين أو الشريعة الإسلامية إنما ينطلي على الفور، هذا الجدل من المطاف الضيق والخاص إلى الساحات العامة التي تتوارد فيها وتشارك أوسع الجماهير، بصرف النظر عن القدرة على استكناه حقائق الأمور والصلاح للإدلة بما هو مسوّب من الآراء!

ونحن نعتقد أن حصوم قاسم أمين وكتابه «تحرير المرأة» لم يفكروا، أو فكروا واحد منهم، في ترجمة كتابه «المصريون» عن الفرنسية إلى العربية - وهو الذي صادر قبل «تحرير المرأة» بخمس سنوات - لكان الذي يرد على قاسم أمين في «تحرير المرأة» هو قاسم أمين في «المصريون»! وبالذات فيما يتعلق بالقضية الأساسية الثلاث التي أثارت الجدل والعراء.

ذلك أن قاسم أمين قد قدم في «تحرير المرأة» الآراء التي كان ينفيها ويقتضيها في «المصريون»، وصُمّم فياناً عندما نقرأ كتابه «المصريون» ليغيل إلينا أن الذين يتحدثون ويرهون ويجادلون هم حصوم قاسم أمين، وبالذات فيما يتعلق بالحجاب، والصلاق، وتعدد الزوجات!

وهذا هو الأمر الذي دعا لأن تعمد هذا الفصل عن التطور الفكري لقاسم أمين... والذى يدعونا للتساؤل: كيف لم ينتف

إلى هذه الحقيقة، لا حصر لها فقط سنة ١٨٩٩ م، بل ولا أحد من  
دارسيه بعد ذلك التاريخ؟!

صحبـع أن البعض قد أشار إلى أن قاسم قد (فصل) في «الحرير  
المرأة» بعض ما أجمله في «المصريون»<sup>(١)</sup>، كما أشار آخرون إلى  
أن حماسه لبعض الآراء في «المصريون» قد استبدل بالروح الهدافـة  
والمنطق الموضوعي في «الحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»... ولكنـنا  
نعتقد أن هذا التشخيص غير كافـ، بل وغير دقيقـ، حتى لقد خـيل  
إلينـا أن دارسيـه الذين لم يقفـوا عند هذا التطور الفـكري الجـادـي  
الـذـي حدـث لقاسمـ أمـينـ، إما أنـهم لم يـقرأـوا «المصـريـونـ»، أوـ أنـهمـ  
قرـأـوا قـراءـةـ العـامـ الـمـتـعـجـلـ الـذـيـ لاـ تـسـتوـقـهـ أـبـرـزـ المعـانـىـ فـيـ هـذـاـ  
الـكـتـابـ؟

ولـتوـضـيـعـ هـذـهـ الحـقـيقـةـ الـهـامـةـ... لـتـنـظـرـ فـيـ فـكـرـ قـاسـمـ أمـينـ فـيـ  
كتـابـيـهـ هـذـيـنـ «المـصـريـونـ» و«الـحـرـيرـ الـمـرـأـةـ»، خـاصـةـ مـاـ تـعـلـقـ مـنـهـ بـهـذـهـ  
الـقـضـيـاـيـاـ الـثـلـاثـ:

### الـحـجـابـ وـالـمـجـتمـعـ الـانـفـصـالـيـ

يدافـعـ قـاسـمـ أمـينـ فـيـ كـتـابـهـ «المـصـريـونـ» سـنةـ ١٨٩٤ـ مـ عـنـ نـظـامـ  
الـحـجـابـ السـائـدـ لـعـالـمـ الـمـرـأـةـ الشـرـقـيـةـ عـلـىـ عـصـرـهـ، وـيـتـدـعـ النـظـامـ  
الـصـارـمـ الـذـيـ جـعـلـ الـمـجـتمـعـ الشـرـقـيـ مجـتمـعـاـ انـفـصـالـيـاـ، يـحـرـمـ فـيـهـ  
اـخـتـلاـطـ الـرـجـالـ بـالـسـاءـ، وـيـهـاجـمـ تـحـرـرـ الـمـرـأـةـ الـأـوـرـوـبـيـةـ، وـيـغـالـيـ

(١) «الـهـلـالـ» تـأـلـيـفـ قـاسـمـ أمـينـ: انـظـرـ مـقـدـمةـ النـاـشرـ لـكـتـابـ «الـسـابـ وـتـابـ»،  
صـ ١٣ـ.

في تصوير مساوى الاختلاط فى أوروبا، ويدفع الرجل والمرأة الأوروبية، غالباً، بالتحلل والافتقار إلى العفة وصيانة الأعراض . . يقدم في القضية كل ما قدمه خصوصه فيها عندما أصدر «تحرير المرأة» في سنة ١٨٩٩م!

فهيو لا يرى في المجتمع الشرقي، فما يتميز به من فصل بين الرجال والنساء، أية قيود تحرم المرأة من حق أو عنع عنها أي شيء نافع لها أو للمجتمع. بل يرى أن المساواة متحققة تماماً بين الرجال والنساء، ذلك «أن كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال تستطيع النساء فعله، بل ويفعلنه، وكل ما هو مباح لنا مباح لهن، وكذلك فإن كل محرم علينا محرم عليهم أيضاً، ولذا كان محرم علينا، نحن الرجال، أن ندخل في مجتمع النساء فيبدو لي، من الطبيعي، أن يقع نفس التحريم على نسائنا. وإننى أكرر، من وجهة النظر هذه، أن وضع الرجال هنا مشابه لوضع المرأة تماماً» (١١).

ثم يقرر أن هذا المجتمع الانفصالي ، الذي كان سائدا يومئذ ، هو التطبيق الأمثل لوصايا وتعاليم الدين ، «لأن ديننا .. قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذي لا تدخله امرأة واحدة ، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد . لقد أراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوي عليه صدرهما من ضعف ، والقضاء الجذري على مصدر الشر !»<sup>٢٢</sup> .

(١) المختار المسند، جوازم ٢٧٣.

(٢) المقدمة في المنهج

نعم . . . هذا هو كلام قاسم أمين ! هو كلامه في «المصريون» سنة ١٨٩٤م . . . وهو أيضاً مضمون كلام خصوصه عند صدور «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩م !

ثم يهاجم عادات الأوروبيين فيما يتعلّق بالاختلاط . . . تهمّاً إياهم بالتحليل الخلقي ، مصوّراً أنّ تعالج الاختلاط غالباً ما تنتهي بفقدان المرأة عفتها وتغريط الرجل في عرضه ، يقول : «أنا أعرف أنه يجب تكوين رأي سليم في الجنس اللطيف ، وأن النساء اللاتي يعرفن إبداء جمالهن يعرفن كذلك الدفاع عن أنفسهن . غير أنّا لا نصادف كل يوم قلعاً حصيناً ، فيبعد المعاذك الكبري تدفّق ساعة الاستسلام ، المسألة مسألة صبر ، و«استراتيجية ونكتيك» ! ثم إنه حيث يفشل محارب يتّصّر آخر أكثر مهارة منه ، والمهجّه هو البحث عن المظروف الملائمة للنجاح ، والانطلاق في الهجوم الخامس ، في اللحظة المناسبة . لا قبلها ولا بعدها ! ! !

وهو لا يعرض هذه الصورة التي تجعل من الاختلاط وتحرر المرأة الأوروبية عملاً مكيناً . أساساً ، لم يروع التحليل والاستماع الحرّام . . . لا يعزّز ضمها بوصفها انحرافاً أصباب المجتمع الأوروبي ، وخرج به عن فكره المتمسك بالغفوة والشرف . بل يرى في هذه الصورة التطبيق لفكرة الأوروبيين في هذا الموضوع . . . فيقول :

«يبدو من أفكار الأوروبيين أن استمتاع المرأة بالسعادة واحدة من

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤

زعم مرفوض، بل إن الرجل المتزوج من امرأة جميلة يرتكب حماقة إذا رغب في الاستئثار بها، إن عليه أن يتبع لها أن تعاونه، وتدلل بدلوها في إرضاء أصدقائه، وهو يفهم أن يمزح أصدقاؤه معها وأن يحاولوا الظفر بقلبها، ويوجهوا إليها عبارات الغزل المتصلة، دون أن يقلل الزوج أو يسىء النظر إليهم، فهم في الواقع فتيان شجعان، وبعضهم أصدقاء منذ الطفولة، ولا شيء مما يفعلونه يعد جاداً أو خطيراً، والأمر، كما يرى، مجرد دعابة، ولا شيء غير ذلك! كما ينبع الزوج في نفس الوقت اهتماماً لنزوجات الآخرين، ويخاطبهن بنفس اللغة، ويقول لهن نفس المحادلات، ويوجه إليهن نفس عبارات الغزل، تلك هي متعة اللقاءات المشتركة!»<sup>(١)</sup>.

ثم يقارن بين موقفنا، نحن الشرقيين، من هذه القضية وعاداتنا وتقالييدنا، وبين موقف الأوروبيين وعاداتهم وتقالييدهم عندما يقول:

«إنه على تقدير العادات الأوروبية، التي يبدو أنها أخلقت لنشر المتعة على الأرض... تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة... إن في العالم الإسلامي مفكرين متحررين وملاحدة ومشككين وعاديين، وهناك الذين تبنوا العادات الأوروبية في كل تفاصيل حياتهم، غير أنه لا يوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج في ظل العادات الأوروبية، ويجب لقبولهم هذه العادات

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٩٢.

أن ينتظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود.

إن عليهم أن يعترفوا بذلك بأننا حين نتزوج نحمل إلى نسائنا روحًا ما زالت نقية، وقلباً ما زال مكتمل الحنان، وحراساً أكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم، فالزواج عندنا بداية، في حين أنه عندهم، تقريباً، دائمًا نهاية! (١).

هكذا كتب قاسم أمين في كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤ م:

١ - فحبذا الحجاب للمرأة الشرقية، ودافع عن المجتمع الشرقي الانفصالي . . ورأى في ذلك التطبيق الأمين ل تعاليم الإسلام، والتحقيق للمساواة الحقة بين الرجال والنساء .

٢ - ووجه سهام نقده وهجومه إلى الاختلاط في أوروبا، وعمم على مجتمعاتها تلك الصورة التي ربما كانت خاصة بشريحة هامشية في تلك المجتمعات .

٣ - وخلص إلى أن الشرق والمرأة الشرقية ليست لديها قضية ولا مشكلة تستحق البحث والدعوة إلى التغيير . . وأن المشكلة هناك لدى أوروبا التي أباحت الاختلاط ففقدت التعريم الذي ينعم به الشرقيون؟!

والأذن، ماذا كتب قاسم أمين عن هذه القضية في «تحرير المرأة»

سنة ١٩١٨٩٩

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٩٤، ٢٩٥.

في «التحرير المرأة» ينقض قاسم أهين ما ذكره من قبل من أن الحجاب ميزة للمجتمعات الشرقية، يربط فيها بتعاليم الإسلام . . . ويراه «عادة» مرت المجتمعات عديدة، ومنها مجتمعات أوروبية، ويقرر أن تطور هذه «العادة» بــيل واندــيلــرــهاــ أمر ممــكــنــ وــخــاصــعــ لــاــخــضــعــ لــهــ غــيــرــهــاــ منــ «ــالــعــادــاتــ»ــ .ــ يــقــولــ:ــ وــذــلــكــ لــأــنــ الــحــجــابــ دــوــرــ مــنــ الــأــدــوــاــرــ التــارــيــخــيــةــ لــخــبــةــ الــمــرــأــةــ فــيــ الــعــالــمــ»ــ .ــ قــالــ «ــلــارــوــســ»ــ تــحــتــ كــلــمــةــ «ــخــمــارــ»ــ:ــ «ــكــانــ نــســاءــ إــبــرــيــاــ يــســتــعــمــلــ الــخــمــارــ إــذــاــ خــرــجــنــ وــيــخــفــيــنــ وــجــوــهــهــنــ بــطــرــفــهــ .ــ كــمــاــ هــوــ إــلــآنــ عــنــدــ الــأــمــ الــشــرــقــيــةــ»ــ .ــ وــقــالــ:ــ «ــالــتــرــكــ الــدــيــنــ الــمــســيــحــيــ لــنــســاءــ خــمــارــهــنــ وــحــاـفــظــ عــلــيــهــ عــنــدــمــاــ دــخــلــ فــيــ الــبــلــادــ،ــ فــكــنــ يــغــطــيــنــ رــوــســهــنــ إــذــاــ خــرــجــنــ فــيــ الــطــرــيــقــ وــفــيــ وــقــتــ الــصــلــاــةــ،ــ وــكــانــ النــســاءــ تــســتــعــمــلــ الــخــمــارــ فــيــ الــقــرــوــنــ الــوــســطــيــ،ــ خــصــرــصــاــ فــيــ الــقــرــنــ الــتــاســعــ،ــ فــكــانــ الــخــمــارــ يــحــيــطــ بــأــكــافــ الــمــرــأــةــ وــيــجــرــ عــلــيــ الــأــرــضــ تــقــرــيــباــ،ــ وــاســتــمــرــ كــذــلــكــ إــلــىــ الــقــرــنــ الــثــالــثــ عــشــرــ،ــ حــيــثــ صــارــتــ النــســاءــ تــخــفــفــ مــنــهــ إــلــىــ أــذــصــارــ،ــ كــمــاــ هــوــ إــلــآنــ،ــ تــســيــجــاــ خــفــيــاــ يــســتــعــمــلــ خــمــاــيــةــ الــوــجــهــ مــنــ التــرــاــبــ وــالــبــرــدــ وــلــكــنــ يــقــيــ بــعــدــ ذــكــرــ يــزــعــنــ فــيــ إــســبــانــيــاــ وــفــيــ بــلــادــ أــمــرــيــكــاــ الــتــيــ كــانــتــ تــابــعــةــ لــهــاــ»ــ .ــ (١)

ثم مار، في «التحرير المرأة»، موالياً موقفه الفكري الجديد، فنفي أن يكون هذا الحجاب تنفيذاً لتعاليم الإسلام، فهو «عادة» لا «شرع» . . . فقال : «ــ إــنــ الــأــوــاــمــ الــإــلــهــيــةــ يــجــبــ الــإــذــعــانــ لــهــاــ دــوــنــ بــحــثــ وــلــاــ مــنــاقــشــةــ،ــ وــلــكــنــ لــاــ نــجــدــ نــصــاــ فــيــ الــشــرــعــ يــوــجــبــ

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٤

الحجاب، على هذه الطريقة المعهودة، وإنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأئم، فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين، والدين براء منها»<sup>(١)</sup>.

ثم رأينا يطلب موقفاً وسطاً، لا هو ثرج الغرب وفعالياته في عرض مفاتن المرأة، ولا هو الحجاب الشرقي ومنع اختلاط الرجال بالنساء، فيقول: «إن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصل المرأة من التعرض لمثارات الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياة، وقد تفاجئنا نحن في طلب التحجب والتحرّج من ظهور النساء لأعين الرجل.. وبين هذين الطرفين وسط، هو الحجاب الشرعي، وهو الذي أدعوه إليه»<sup>(٢)</sup>.

ومعروف أن الحجاب الشرعي لا علاقة له بمنع الاختلاط، إذ هو يعني ستر جسم المرأة ومقاتتها، عدا الوجه والكفاف. . وبعد أن كان قاسم أمين يدافع - في «المصريون» - عن المجتمع الانفصالي، ويراه التنفيذ لتعاليم الدين الإسلامي، أخذ يهاجم هذا المجتمع الانفصالي، ويستنكر إمكانية ممارسة المرأة لواجباتها ومهاماتها في الحياة، طالما ساد الانفصال بين الجنسين في المجتمع، إذ «كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تأخذ صناعة أو تجارة لتعيش منها إن كانت فقيرة؟ إن الفرورة أحياناً ثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين، كما

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٥

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٣.

نشاهده في الخدمات والمعاملات وسكان القرى ، حتى من أهل الصيحة المتوسطة ، بل وبعض أهل العلبة من أهل الباذلة والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الدين لعكن فيهم منه في أهل المدن ! (١)

وبعد أن كان الاختلاط عنده شرًا ، يستخدمها الرجال للإيقاع بالمرأة في حبائل أحب والعنق والشدة . أخذ ينفي هذا الفهم السطحي ، ويرى قطاعات المجتمع التي يلعب الاختلاط والتحرر في حياتها دوراً إنتاجياً ونضالياً في سبيل العيش . ويدرك رقى أخلاق هذه القطاعات حتى عن الشرائع التي تستر بعدها خلف الحجاب ! فكتب مقرراً «أن نساء العرب ونساء القرى المصريات ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا تقريباً ، أقل ميلاً للمفساد من ساكنات المدن الراقية لا يمنعهن الحجاب من مظاومة الشهادات والانعماس في الفاسد . وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التي تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة !» (٢) .

هكذا حسم القضية هذا الجسم الجديد !

وبعد الصورة التي قدمها - في «المصريون» - لنهر آلة الأوروبية والغربية ، صورة العاشرة الغانية ، فالفرسية التي لا تنتهي أن تستسلم ، سريعاً أو بعد زمن ، لإغراء الرجل الساعي لاقتاحها ، عاد فاهم أمين عن رأيه هذا في ساء الإفريخ ، فرأى أنهن «يحافظن

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٩ .

على ظواهرهن ، على العسمون<sup>(١)</sup> . وأثنى على منع المرأة الأمريكية بحريتها ، ومحبته بإعجاب عن الاختلاط هناك أفسس ، أمريكا هن أكثر نساء الأرض تشعًا بالحرية ، وأكثرهن اختلاط بالرجال . حتى أن البنات في صباهن يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة ، فتتعدد البنت بحانب الصبي لتعلقي العلوم!<sup>(٢)</sup> .

ومع هذا الاختلاط في الغرب ، نهضت المرأة ، ونهضت الأمة ، فكمل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا ينتهي في آنهن بأثني من الأعمال العظيمة مما لا قوام للمدنية بذاته!<sup>(٣)</sup> .

ذلك هي قضية الحجاب . . و موقف قاسم أمين منها . . موقفه التدريم كما صوره في كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤ م ، وهو موقفه الجديد ، والمتاخر جلدياً لوقفة التدريم ، والذي عرضه في كتابه «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩ م .

\* \* \*

### تقييد الطلاق

والقضية الثانية التي تقدّمها مثلاً حياً وأضحاً للتطور الفكري الذي هرّبه قاسم أمين ، هي قضية الموقف من «الطلاق» . . وهل هو حق مطلق للرجل . . أم أن الأمر يستدعي تقييد هذا الحق ووضع الضوابط على هذا الإطلاق؟

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٩

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٩

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٨٠

ذلك أن قاسم أمين، في كتابه "المصريون"، يدافع عن بقاء الحرية الكاملة، وغير المقيدة، لمرجل ليوقع الطلاق ويفصم عرى العلاقة الزوجية عندما يقرر ذلك ويراه السبيل لما يتصوره صواباً. وهو هنا يستذكر الآراء الإصلاحية التي يرى أصحابها ضرورة جعل الطلاق بحکم من القاضي بعد بذله الجهد - بواسطة التحكيم - لصلاح ذات البين. وهو يصور موقفه هذا عندما يقول:

"... غالباً ما يكون الطلاق علاجاً أسوأ من الماء غير أن له، كجميع الأدوية، مرهبة الشفاء في بعض الأحيان، إنه عملية بتر يذعن لها المصاب كارها دائماً، مطلقاً صرخات الألم، ولكنها مع ذلك تنقذه من الموت.

وقد رأى المشرع الإسلامي من الضروري ترك هذه المسألة الخضرية في يد الزوجين، يتصرّفان فيها بحريتهما، فالمسألة تتعلق بحياتهما وبسعادةهما ومستقبلهما، وذلك أهم ما يمكن أن يكون ركيزة لتفكيرهما، وهما يتوليان بنفسهما مهمة إصدار الحكم على مصيرهما الذاتي.

إني لا أفهم أن يقيم الإنسان دعوى ليحصل على الطلاق، فطلاق في الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتفاوض، كالذارع على برميل نبيذ أو جدار مشترك. أية محكمة تلك التي ترعم فدرتها على توجيه قلبى وشاد وثاقه، وهو المتقلب كثير النزوات؟! وماذا يعرف هؤلاء القضاة؟! إن موضوع هذه القضية هو شخصيتي

الصعبية المعقّدة التي تحتاج عدّة سنوات من عبقرى مثل (زولا) لكي يفهمها ويحلّها ويحكم عليها!!<sup>(١)</sup>

ولكن قاسم أمين يعود عن موقفه هذا، ويتبنّى الرأي المعاكس لرأيه الذي أسلفناه، وأن يكون بالتدريج، فيبدأ بالشكوى من مضار الإسراف القائم والحاصل في استخدام الرجال لخدهم المطلق في الطلاق. فهو قد أصبح «أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة». . . ومع ذلك «اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جداً. لا يمكن أن يرضاه الشرع أو يسلم بها العقل». . .<sup>(٢)</sup>

ثم نعد ذلك يختتم الموقف، فيدعى إلى تقييد الإطلاق الذي يتمتع به الرجل في إيقاع الطلاق، ويقتضى، في «تحرير المرأة»، منطقه في «المصريون»، فتتبدل المواقف، ويُرفع خصوصه في سنة ١٨٩٩م نفس حججه هو في سنة ١٨٩٤م! نعم. . . يطلب قاسم أمين، في «تحرير المرأة»، أن توّضع القيود على الطلاق. . . وذلك من مثل :

- ١ - قيد الإرادة الواضحة والنية الحقيقية على فرض عرى الزوجية. . .
- ٢ - قيد الإشهاد على وقوع الطلاق. . .
- ٣ - قيد التحكيم الذي حدده القرآن بهدف محاولة الإصلاح. . .
- ٤ - قيد جعل إيقاع الطلاق من اختصاص القضاء. . .

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٥.

وفي هذا الأمر يكتب ليقول:

«... يجب أن يفهم أن الطلاق إنما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج، وهذا يفرض حتماً وجود نية حقيقية عند الزوج وإرادة واضحة في أنه إنما يريد الانفصال من زوجته... وإن لم يريد الإصلاح أن يبحث في كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت، خصوصاً إذا كان قصده محظوظاً فساد عظيم صار ضرراً عاماً... فلم لا يجوز، مع ظهور الفساد في الأخلاق والضعف في العقول وعدم المبالغة بالمقاصد، أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الإشهاد شرط في صحة الطلاق، كما هو شرط في صحة الزواج، كما ذكره «الصبرسي»، وكما تشير إليه الآية التوارة في سورة الطلاق، حيث جاء في آخرها: «وأشهدوا ذوي عدل منكم» (الطلاق: ٢)؟ أليس هذا أمراً صريحاً بالإشهاد، يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وإمساك وفراق؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهور لدى العموم ليسهل إثباته؟ لم لا تقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق دكناً بدونه لا يكون الطلاق صحيحاً؟ نظن أن في الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله، ورعاية لمصلحة الناس... وما يدركها أن الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل إليه الأمة في زمان كرامتنا هذا، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاماً لنا نرجع إليه عند منيس الحاجة، كما هو شأننا اليوم».

ثم يستطرد فاسمه أمين ليصوغ مشروعه بقانون يقترب به على الحكومة لتقيد الطلاق، فيقول:

... بل إن أرادت الحكومة أن تفعل خيراً للأمة فعلتها أن تضع نظاماً للطلاق على على الوجه الآتي :

المادة الأولى : كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ، ويخبره بالشقيق الذي يبنه وبين زوجته .

المادة الثانية : يجب على القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ما ورد في الكتاب والسنّة مما يدل على أن الطلاق معمول عند الله ، وينصحه ، ويبين له تبعه الأمر الذي سيقدم عليه ، ويأمره أن يتزوجي مدة أسبوع .

المادة الثالثة : إذا أصر الزوج ، بعد مضي الأسبوع على نية الطلاق ، فعلى القاضي أو المأذون أن يبعث حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة ، أو عدلين من الأجانب إن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

المادة الرابعة : إذا لم ينجح الحكمان في الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدمما تقريراً للقاضي أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضي أو المأذون للزوج في الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضي أو المأذون ، وبحضور شاهدين ، ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية ، وليس في هذا تعد على حق من حقوق الزوج ، وإنما هو وسيلة للتروي والتبصر اتخذت لصلحة المرأة وأولادها ، بل ولصلحة

الزوج نفسه! إن فوضى العلاق تحت سلطة القاضى أدعى إلى تضييق ذاته وأدلى إلى المحافظة على نظام الزواج<sup>(1)</sup>.

هكذا استدار فكر قاسم أمين دورة كاملة، فنبتى سنة ١٨٩٩ فكر خصوصه في سنة ١٨٩٤م، كما تبى خصوصه في سنة ١٨٩٩م فكره هو في سنة ١٨٩٤!

## تعدد الزوجات

والقضية الثالثة التي تقدمها ضمن الأمثلة والأدلة على تطور فكر قاسم أمين هي موقفه من «تعدد الزوجات». فعلى الرغم من أن كلامه في كتابيه «المصريون» و«تحرير المرأة» يشترط قيام الضرورة بخواز التعدد والتزوج بأكثر من زوجة واحدة، إلا أنه في «تحرير المرأة» كان أكثر ميلاً لنفيه منع التعدد على إباحته وتجويفه، كما كان كذلك أكثر تبيهًا على مضاره ومخاطرها. بل لقد تحدث في «المصريون» عن أمور ت匪 أن تكون مخاطر اجتماعية سببها التعدد، ثم عاد في «تحرير المرأة» فـ أنها خطراً يجب لأجلها منع هذا النظام.

فيه في «المصريون» يتحدث عن موقف الشرع الإسلامي من التعدد فيذهب إلى أن الشرع الإسلامي يتحدث إلينا عن التعدد قاتلاً: «من المباحة المبدئية تزوجوا بأمرأة واحدة، إنني أصلحكم بذلك من أجل راحتكم، فإذا حدث حادث حطم، لسبب من

(1) المصير السادس، ج ٢ ص ١٠٤ - ١٠٥

الأسباب، حياتكم الزوجية، فستستطيعونأخذ زوجة ثانية، ويمكن لكم إن ساء حظكم اتخاذ زوجة ثالثة أو رابعة. ولكن، فليكن معلوماً لكم أنني لا أبيع لكم ذلك إلا إذا كنتم مضطرين إليه وخاصعين لضرورات محددة. . . وإنني أفرض عليكم. . . أن تعاملوا هؤلاء النساء جميعاً، في كل الأمور، بعدلة كاملة ومساواة دقيقة، وأن تكون هذه النسوة جميعاً زوجاتكم على نفس المستوى، وأن تقوموا بكل نعماتهن، وأن يكون الأطفال الذين يضعنهم أولادكم، فتسهرون على تعليمهم جميعاً بنفس الاهتمام واليقظة. . . فإذا أحسستم القدرة على أداء هذه الواجبات العديدة والمتوعدة، وإذا وجدتم أنفسكم في حالة ضرورة تحتم الخضوع لها فتزوجوا بأكثر من واحدة، وإنما فلا تأخذوا إلا زوجة واحدة، وهذا أفضل. . . .

كما يعرض قاسم أمين، في هذا الكتاب، لرأي الذين ينادون بمنع التعدد أو تقييده تقييداً شديداً، لأنه قد أصبح مصدراً لشريع العداوة والبغضاء بين الآخوة المؤلودين من أمهات عددة، فيرفض هذه الحجة، ويقول «يتحليل الناس، بصفة عامة، أن الأطفال الذين يولدون من أمهات مخالفة يحدث لهم، بالضرورة، أن يتداولوا الكراهة، وأن يتعاركوا صبحاً ومساءً، ومع ذلك فإن هذا لا يحدث، والمسألة مسألة تعود!!»<sup>(1)</sup>.

وبعد ذلك نرى فكره يتطور عندما يعرض القضية في «تحرير

(1) المصدر السابق، ج 1 ص 82 - 87

المرأة» تطوراً ملحوظاً. فهو يقول: «... لا يغدر رجل يتزوج أكثر من امرأة، اللهم إلا في حالة الضرورة المطلقة... وغاية ما يستفاد من آية التحليل: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مشي وثلاث ورباع فإن خفته لا تعدوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدمي إلا قعلوا» (الساعة: ٣). إنما هو حي تعدد الزوجات إذا أمن الجحور. وهذا الحال. كسائر أنواع الحالات، تعرية الأحكام الشرعية الأخرى، من المنع والكراءة وغيرها، بحسب ما يترتب عليه من المغاسدة والمصالح، فإذا اغلب على الناس الجحور بين الزوجات، كما هو مشاهد في أزماننا، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد في العائلات، وتعدد للحدود الشرعية الواجب التزامها، وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة، وشروع ذلك إلى حد يكاد يكون عاماً، جاز للحاكم، رعاية للمصلحة العامة، أن يمنع تعدد الزوجات، بشرط أو بغير شرط، على حسب ما يراه من الفقا لصلحة الأمة...»<sup>(١)</sup>.

فهو هنا يتحدث عن قيام فساد في العائلات وعداوة بين أعضائها بسبب التعدد، وهو ما كان ينكره من قبيل... وهو هنا يتحدث عن جواز إصدار تشريع يمنع التعدد مطلقاً، إذا غابت المغاسدة الناشئة عنه في المجتمع، ولا يترك القضية برمتها للموقف الفردي والتصريف الفردي كما كان عليه موقفه في كتاب «المصريون».

وهو تطور ملحوظ في فكره حيال هذا الموضوع.

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٩٢، ٩٣.

هكذا أصاب التطور فكر قاسم أمين ما بين سنة ١٨٩٤م،  
عندما أصدر رده على دوق داركور وما بين سنة ١٨٩٩م، عندما  
أصدر «تحرير المرأة».. وهو التطور الذي سقنا عليه الأدلة،  
وقدمنا التماذج والأمثلة التي تبرهن عليه فيما تقدم من صفحات.

لكن، يبقى سؤال هام لا بد من الإجابة عنه.. . وهو:

ماذا كان هذا التطور الفكري، عند قاسم أمين أساساً وبالدرجة  
الأولى، في تحديد رأي الشرع الإسلامي من القضايا التي كانت  
مثاراً يومئذ بين الباحثين في قضايا الأسرة والمرأة ومشئونها؟  
وبالتحديد في قضايا: الحجاب، والطلاق، وتعدد الزوجات؟

إننا لا نلاحظ تطوراً فكرياً بارزاً في آرائه الأخرى، مثل آرائه  
في: الأدب، واللغة، والسياسة، والاجتماع، والاقتصاد،  
والمنهج، والحضارة.. الخ. والذي لا حظناه هو أن التطور  
الملاحوظ كاد أن يقتصر على الآراء التي حواها كل من «المصريون»  
و«تحرير المرأة» باعتبارها رأي الشرع الإسلامي في مشاكل الأسرة  
وعلاجها.

وأهمية هذا المسؤال، ومن ثم أهمية الإجابة عنه، تكمن في  
ذلك الرأي وال موقف الذي أبديناه من قبل، عندما كتبنا الدراسة  
التي قدمنا بها (للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) فقلنا يومئذ:  
إننا مع القائلين بأن الإمام محمد عبده مشاركة في تأليف كتاب  
«تحرير المرأة»، ولقد قدمنا أدلةنا التي تثبت أن الفحول التي  
عرضت لرأي الشرع في قضايا الحجاب والزواج والطلاق ونعدد

الزوجات، بهذا الكتاب، هي للأستاذ الإمام، ول ليست لقاسم أمين.

لقد رأينا ذلك، وكتبتنا عنه صفحات أثبتناها كذلك في التقديم للأعمال الكاملة لقاسم أمين. . ولنحن نود أن نضيف هنا:

أن هذه الدراسة التي قدمناها، في هذا الفصل، عن التطور الفكري لقاسم أمين، هي دليل جديد يدعم ذلك الرأي الذي سبق لنا أن فرقناه.

ذلك أن الحججة التي قدمناها، ودللنا عليها يومنا، هو أن الفكر الإسلامي المتخصص الذي قدم في هذه الفصول هو من صنع إمام مجتهد في الإسلام، ونم يكمن في ذلك العصر أقدر من الشيخ محمد عبده على الإدلة بهذه الاجتهادات وأإصدار هذه الأحكام، وأن هذا الميدان ليس ميدان قاسم أمين.

كما أن جوهر حججة خصوم هذا الرأي كان أن قاسم أمين ليس خريجاً عن الشريعة الإسلامية ومباحثتها، فلقد درسها كرجل قانون ضليع.

ولكن. . بعد دراستنا هذه عن تطوره الفكري. . لنا أن سأله: هل درس قاسم الشريعة بين سنتي ١٨٩٤م و ١٨٩٩م. . أم قبل ذلك بكثير؟ إن المعلوم أنه تخرج في مدرسة الحقوق سنة ١٨٨١م، وأنهى دراسته القانونية في فرنسا سنة ١٨٨٥م. . ومنذ ذلك التاريخ وهو يمارس وظائف القضاء، في النيابة أو مستشاراً في محكمة الاستئناف. . فإذا ما جاء في سنة ١٨٩٤م وقدم لنا في

كتابه «المصريون» تلك الآراء التي قال عنها إنها آراء الشرع الإسلامي في الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات، كذا مطالبين بأن نقول: إن هذه ثمرة دراسة قاسم أمين للشرع الإسلامي، وفهمه له في تلك المباحث... وإذا ما قدم لنا في «تحرير المرأة» آراء الشرع الإسلامي، في هذه القضايا، على نحو منافق لما في «المصريون» كان لنا، إن لم يكن علينا، أن نزيد ونذكر قول من قال: إن الفضول التي حواها «تحرير المرأة» عن رأي الشرع في هذه القضايا إنما هي لأستاذ الإمام محمد عبد، أسمهم بها مع قاسم أمين في تأليف هذا الكتاب.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن هذه الفضولات التي قدمناها عن التطور الفكري لقاسم أمين، هي دليل جديد يضاف إلى الأدلة التي سبق أن قدمناها وتحن نقدم للأعمال محمد عبد على وجهة النظر هذه فيما يتعلق بكتاب «تحرير المرأة»... والفضل هي إضافة هذا الدليل الجديد يعود، في الأساس، إلى استنادنا في دراستنا هذه، التي نقدمها، على كتاب «المصريون»، الذي ترجم عن الفرنسية للمرة الأولى، والذي كان الدليل الأول على هذا التطور الفكري القائم في آثار قاسم أمين.

## جريدة المرأة

[هناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية.. فشكل الحكومة يؤثر في الآداب المترتبة، والأداب المترتبة تؤثر في الهيئة الاجتماعية.. ففي الشرق تجد المرأة في رق الرجل، والرجل في رق الحكومة.. وحيثما تتمتع النساء بحريةهن الشخصية ينعم الرجال بحريةهن السياسية، فاذا كان مرتبان ارتباطاً كلباً.

وافتقار المرأة المسلمة إلى الاستقلال يكسب ضروريات حياتها هو السبب الذي جر ضياع حقوقها، فلقد استأثر الرجل بكل حق، ونظر إليها نظره إلى حيوان لطيف، يكفيه لوازمه كي يتسلى بها!!.

فاطمة أمين

إن التعميم في الحكم على الميراث العربي والشريقي فيما يتعلق بحقوق المرأة والنظرية إليها وتقدير دورها في المجتمع وعلاقتها بالرجل، ذلك الميراث الذي واجهه قاسم أمين ومعاصروه، عندما فكروا في دخول هذا الميدان من صيادين الإصلاح الاجتماعي . . . إن التعميم في الحكم على هذا الميراث هو خطأ كبير.

ذلك أن تراث العرب والشرق قد اشتمل على تيارين رئيسيين تمايزاً إلى حد كبير في هذا الموضوع . . فحيثما كانت هناك حركات فكرية عقلانية أو ثورية أو تقدمية، وجدنا للمرأة في صفوها دوراً ملحوظاً، نسبياً، ووجدنا في فكر هذه الحركات والتيارات حديثاً مشوياً بالكثير من الاحترام للمرأة ودورها في الحياة . . نجد ذلك عند المعتزلة، والخوارج، وبعض فرق الشيعة.

وحيثما كانت السبادة للفكر المتخلف، والمهمام الأولي للحركات الفكرية هي التبرير لمقاييس الحكم وإضعاف الشرعية على تصرفات المستبددين بالسلطة والسلطان كان الاحترام للمرأة، والنظر إليها كسلعة من سلع المتعة، ومحظوظ جميل وضعيف قد خلقه الله كي تزين به القصور ويستمتع به الرجال .

ولما كانت الغلبة والسيادة، أن في هذا النوع من حضراً أو في الصورة قوة وعلوًّا، كانت من نصيب ذلك المفهوم الثاني والتقييم

الأخير، فلقد أصبحت المرأة تراثاً فكرياً ملائكة بكل ما يحفل  
المرأة ويغتصبها، ورسيخ ذلك في فكرية المجتمع الشمالي.  
خصوصاً بعد أن طال ليل العصور «المملوكية - العثمانية»، حتى  
لقد غابت من الميراث الفكري الذي كان الناس يتناولونه او احقر  
القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تلك القسمة الأخرى  
في تراثنا، التي تنصف المرأة وتضع اعتباراً لدورها الإيجابي في  
الحياة.

ومن هنا نستطيع أن نتخيل أن أي ميراث فكري كان يطالعه جيلاً  
قادس أمين عن المرأة وحقوقها في الحرية ونصيبها من المساواة؟!  
وهذا التخييل أمر ضروري، لأن قييم العمل الفكري والتضييق  
الذي بذله وأنجزه قادس أمين، في ذلك الميدان، التقييم الذي  
يستحقه فحسب، بل والإدراك: لماذا كانت أحلام قادس أمين  
وجيله في هذا الميدان متواضعة جداً، عندما تنظر إليها الآن في ضوء  
ما أنجزته حركة تحرير المرأة فعلاً، فضلاً عن الأمال التي هازلت  
تسعى في سبيل تحقيقها على هذا الدرج الطويل.

ونحن نستطيع أن نكتف ملامح تلك الفكرة المتخلفة التي  
ورثها ذلك الجيل، في هذا الموضوع، بالإشارة إلى نصين يعبر كار  
منهما عن فكرة و موقف جددهما المجتمع من المرأة:

أولهما: يعبر عن المقوله القائلة «أن موت المرأة خير من  
حياتها»، وأن بطن الأرض أكرم لها وللحياة من ظهرها! ويعبر  
عن هذه المقوله أبو بكر الخوارزمي (٩٣٣ - ٩٣٥) عندما يكتب  
إلى رئيس «بهراء» معزيًّا في وفاة ابنته، فيقول:

... ولولا ما ذكرته من سترها، ووقفت عليه من غرائب أمرها، لكنت إلى التهنة أقرب من الشعية! فإن ستر العورات من الحسناوات، ودفن البنات من المكرمات! ونحن في رمضان إذا قدم أحدنا فيه الحمرة، فقد استكمل النعمة، وإذا زف كزينة إلى القبر، فقد بلغ أمنيته من الصهر! قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريماً      كنعمة عورة سترت بقبر  
وقال آخر :

تهوى حباتي وأهوى سونها شفنا  
والموت أكرم نزال على الحرم

وeddت بنيني وددت أني      وضعت بنيني في لحد قبري  
قال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات      بقاء البنين وموت البنات  
وقال آخر :

سميتها إذا ولدت: قوت      والقبر صهر ضاهر وبيت<sup>(١)</sup>  
وثانيةما أي ثانية النصين: هو المعبّر عن سيادة المجتمع  
الأنصاري، وصرامة هذا الفحش بين الرجال والنساء، ويعبر  
أبو العلاء المعرّى (٩٧٣ - ١٠٥٧م) عن هذه المقوله عبدهما يقول:

(١) «الهلال» تأليف قاسم لغين. انظر مقدمة تأثیر «أسباب ونتائج»، ص ٢٠٢

إذا بلغ الوليد لديك عشرة  
 فلا يدخل على الحرم الوليد  
 وإن خالفتني وأضمنت نصحي  
 فلأنه وإن رزقت حجى، بل يد  
 إلا أن النساء حبائل غي  
 بهن يصعب الشرف التلبيداً<sup>(١)</sup>

تلك كانت مواريث الفكر، عن المرأة، التي واجهها قاسم أمين  
 وجيل قاسم أمين . . ومن ثم فنحن نستطيع أن نبصر عمق قاسم  
 أمين . . عندما ارتبط بين تحالف المرأة وعبوديتها وبين سبادة النظم  
 المستبدة، في فترات طويلة، حياة الشرق ومجتمعاته . . فلا  
 الإسلام ولا طبيعة الأشياء ولا خصائص ضعف المرأة وقصورها،  
 هي التي ميزت بين الرجال وبين النساء وقسمت شئون الحياة  
 بينهم تلك القسمة غير العادلة، وإنما هو الاستبداد الذي جعل من  
 المرأة إحدى فرائسه، مكبلها بالقيود والأغلال . . ومن ثم فإن  
 تحررها مرتبط بتحرر الرجل من الاستبداد، أي بتحرر المجتمع  
 ككل . . وهو يعبر عن هذه الفكرة الهمة عندما يتحدث عن أن  
 مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة، والحكومة التي  
 تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على

(١) الزور ما لا يلزم، ج. احسن ٢٤٧، تحقيق أمين عبد العزيز الحاتمي، طبعة القاهرة، سنة ١٩٢٤.

اكتساب المرأة حقوقها وحرrietها . . فهناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية في كل بلد . ففي كل مكان حظر الرجل من منزلة المرأة وعانياها معاملة الرقيق حظر بنفسه وأفقدها وجدان الحرية ، وبالعكس ، في البلاد التي تتمتع فيها النساء بحرrietهن الشخصية يتمتع الرجال بحرrietهم السياسية ، فالحالتان مرتبعتان ارتباطاً كلياً .

وإن للسائل أن يسأل : أى الحالتين أثرت في الأخرى ؟ نقول : إنهما متفاعلتان ، وإن الكل منهما تأثيراً في مقابلتها . وبعبارة أخرى : إن شكل الحكومة يؤثر في الآداب المترتبة والآداب المترتبة تأثير في الهيئة الاجتماعية .

انظر إلى البلاد الشرقية ، نجد أن المرأة في رق الرجل ، والرجل في رق الحاكم ، فهو ظالم في بيته مظلوم إذا خرج منه ! ثم انظر إلى البلاد الأوروبية ، نجد أن حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية ، فارتفع شأن النساء فيها إلى درجة عالية من الاعتزاز وحرية الفكر والعمل !<sup>(1)</sup> .

وحقيقة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، والعمق أيضاً . وعاتها قاسم أمين . عندما أدرك أن افتقار المرأة إلى «الاستقلال الاقتصادي» ، وبعدها عن مبادئ العمل المجتمع في المجتمع جعلها تابعة وخاضعة لمن يسده رمقها ويضمن لها مقومات الحياة وضرورياتها . . وإن رأك قاسم أمين لهذه الحقيقة هو امتداد لامنهج

(1) (الأعمال الكاملة لقاسم أمين) ، ج 2 ص ١٢٦، ١٢٥ .

الاجتماعي الذي استخدمه في دراسة المجتمع وتفسير التاريخ . . .  
وهو يعبر عنها عندما يتحدث عن عمل المرأة ودوره في تحريرها،  
إذ «لُو تبصُرُ المُسْلِمُونَ لَعِلْمُهُمْ أَنْ إعْفَاءَ الْمَرْأَةِ مِنْ أَوْلَى وَاجْبَهُ  
عَلَيْهَا، وَهُوَ التَّأْهِلُ لِكَسْبِ ضَرُورَيَّاتِ الْحَيَاةِ بِنَفْسِهَا، هُوَ السَّبِبُ  
الَّذِي جَرَّ ضَيْعَ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَمَا كَانَ مَسْتَوَّاً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ  
اسْتَأْثَرَ بِالْحَقِّ فِي النَّعْمَةِ بِكُلِّ حَقٍّ، وَلَمْ يَقُلْ لِلْمَرْأَةِ حَظٌ فِي نَظَرِهِ إِلَّا  
كَمَا يَكُونُ لِجِيَوْنَ لَطِيفٌ يَوْمَيْهِ صَاحِبُهُ مَا يَكْفِيهِ مِنْ لَوْازِمَهُ تَفَضُّلًا  
مِنْهُ، عَلَى أَنْ يَتَسَلَّلِي بِهِ!»<sup>(١)</sup>.

ذلك هو الميراث الفكري، المعبّر عن الواقع العملي، أى وجهاً  
العملية المحسدة لوضع المرأة في المجتمع الشرقي عندما نادى  
بتحريرها قاسم أمين .

وذلك هو تقييمه للأسباب الجوهرية؛ لذلك الوضع المتختلف  
الذى كانت عليه النساء في مجتمعه الذي عاش فيه .

\* \* \*

ونحن نستطيع، دون تفصيل يطيل بنا الحديث، أن نستدعي  
إلى الأذهان صورة امرأة ذلك العصر، كما رأها قاسم أمين .

فهي، اجتماعيًّا، لا وجود لها العزلتها عن المجتمع وفيها  
خلف جدران الحرير . . . وكما يقول قاسم أمين: فإنه «ليس بين  
الأمهات إلا عدد قليل جداً يعرف القراءة والكتابة، وليس واحدة  
لها إيمان، ولو سطحيًا، بقدرات أي علم من العلوم أو فن من

---

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢.

الفتون، وهي فوق ذلك جاهمة بكل أحوال الدنيا، ولا تدرى شيئاً من المعاملات والتجارة ولا من نظمات وقوانين البلاد التي تسكنها، فضلاً عن الإمام بأى شئ من أحوال البلاد الأخرى، وهي مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا تجتمعه بعالم الرجال فكر أو عمل، وأمة داخل الأمة لها أخلاقها وعواندها ومعتقداتها. وفي الحقيقة: أنهن آثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا آرمة بعيدة... باقيات على ما كان عليه تلك الأوقات<sup>(١)</sup>!

ولم تكن حال المرأة داخل المنزل بالخير كله، فلم تكن، كما قد يتواهم البعض، ملكة لمملكة المنزل، وإنما كانت مخلوقاً ضعيفاً قد أعد ويدع للاستهانة أولاً وقبل كل شئ... وعن حالاتها المعنية هذه يقول قاسم أمين:

«وأما من الناحية المعنية، فهي - (أى المرأة) - مخلوق متواضع، ذات طبيعة تأممية، وبعيدة عن الفاعلية، تكرر الحديث والضحك، تحب دينها، لكنها لا تعارضه! ليس لها مثل أعلى، وتناقلم مع الحياة الواقعية، وهي زوجة ثنوذجية، وأم حانية، لكنها محدودة الموهب في التدبير المنزلي!».

فيها مخلوق ذيلت موهبها وإمكاناته من طول تعطنهما وحرمانها من التدريب على ممارسة ما خلفها له الخالق سبحانه! ولقد بقيت لها من هذه الموهب والإمكانات ما كان متعلقاً منها «بالشكل»، فهي على قدر لا يأس به من الجمال يتجلى على وجه

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٧.

الخصوص في نسب أعضائها، ومتانة الجسد، ونماصكه، كم تنتهي العيون التي تتطلع إلى فلاحة جميلة فتشي مستقيمة، بارزة النهدين مثقلة القوام، الثالثة العينين بالأحلام، طويلة تغريها، في كفيها وقد مبها دقة رائعة! أما ما تتميز به حقا فهو عيناه الواسعتان السيدوان الحائستان، حتى ليحس بها المرأة عيني «ملاك»، والمعبرتان، حتى ليفهمهما المرأة قبل أن تحدث هي! (١).

\* \* \*

وعلى عظم الصجة وضخامة الرغف المذبح قوبلت بهما صيحات قاسم أمين، فإن مطالب الرجل كانت متواضعة، بل شديدة التواضع، إذا ما قيست بما ينجب لتحرير المرأة حفظ من إنجازات وإصلاحات، ولكن هذه المطالب كانت تدل شورة حقيقة وتغييراً جذرياً في فكر المجتمع وأعرافه بالقياس إلى واقع المرأة الذي أشرنا إلى الملمع العام من ملامحه.

\* ففي التعليم: لم يطلب قاسم أمين مساواة بين المرأة والرجل في جميع مراحاته... بل طلب لها فقط المساواة به في التعليم الابتدائي! وعبر عن مطلبها المتواضع هذا عندما قال:

... ونست من يطلب المساواة بين المرأة والرجل في التعليم فذلك غير ضروري، وإنما أطلب الآخر، ولا أتردد في الطلب، أن توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الأقل، وأن يعني ب التعليمين إلى هذا الحد مثل ما يعني ب التعليم البنين».

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٧٨، ٢٧٩.

وهو لا ينسى في حديثه عن تعليم المرأة أن تميز بين التعليم الجاد الذي يطلبها لها، وهو الذي يصبح في حياتها قوة تغير سلبيتها فتجعلها إيجابية، وتطورها بتطور مجتمعها، وبين ذلك التعليم الذي ليس له من التعليم سوى المظاهر والقشور... ولذلك فهو يعتقد ما كان موجوداً يومها من «تعليم» تلقاه المرأة، كي تظل بـ«ال المتعلقة» أكثر جودة... فيقول:

... أما ما يتعلمها بعض البنات الآن فأراه غير كاف، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية، وشيئاً من الخياطة والتطريز، والموسيقى، ولا يتعلمن من العلوم ما يستغلن منه فائدة بلتفت إليها، وربما زادتهن تلك المعرفة خروجاً بأنفسهن، فتظن الواحدة منهن أنها مني عرفت أن تقول: نهارك سعيد، باللغة الفرنساوية، فقد فاقت أتراها، وارتفع شأنها، وسما عقلها، ولا تنازل بعد ذلك لأن تستغلي بعمل من الأعمال المنزلية، فتقضي حياتها في تلاوة أقاوصيص وحكايات قلماً تفيد إلا في إشارة صور من الخيالات نطوف بها، وتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح فيه طرفها وهي شاخصة إلى دخان السيجارة التي تقضي عليها!

أكثر ما تعرفه المرأة، التي يقال الآن إنها متعلمة، هو القراءة والكتابة، وهذه واسطة من وسائل التعليم وليس غاية ينتهي إليها، وما يبقى من معارفها فيها فشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر، ثم تختلف منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء، أين

هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغلبى منها العقل وينقى  
على مطاردة الوهم <sup>(١)</sup> .

ذلك هي حال تعليم من كن يتعلمن يومئذ من البيات . . .  
وهذا هو رأى قاسم في هذا التعليم . . . ومطلبها في تعليم النساء .

«وفي الحجاب: لم يطلب قاسم سفور المرأة على التحول الذي  
كان عليه أمرها في أوروبا يومئذ، ولا على التحول الذي  
وصل إليه أمرها هذه الأيام . . . وهو كذلك لم يطلب إباحة  
خلوة المرأة بالرجل الواحد، وهو غريب عنها، ليس محروم  
لها . . . وإنما طالب فقط بكسر أسوار عزلة المرأة عن المجتمع،  
وتحريرها من الحجاب المعمق لها عن العمل ومارسة وظائفها  
العامة والطبيعية المضورية، وحجد الوقوف بالحجاب عند ما  
هو شرعي منه وفق أراء الفقهاء، ونادى بالاختلاط الذي  
تحتمه ضرورات العمل ومتضيئاته في معرك كسب الرزق  
والحياة . . . وعن هذا المطلب المتواضع يقول:

«ربما يتوجه ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة، لكن  
الحقيقة غير ذلك، فما ترى لا أزال أدفع عن الحجاب، وأعتبره  
أصلاً من أصول الأدب التي يلزم التمسك بها، غير أننى أطلب  
أن يكون منطبقاً على ما جاء في الشريعة الإسلامية، وهو على  
ما في تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا، لما عرض  
عليهم من حب المغالاة في الاحتياط، والبالغة فيما يظنونه

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦، ٣٧.

عملاً بالأحكام، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بعنانع الأمة.

«والذى أراه فى هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غنوا فى إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصرف المرأة من التعرض لمشارات الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياة، وقد تفانيت نحن فى طلب التحجب والتبرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيّرنا المرأة أدلة من الأذوات أو مداعى من المقتنيات، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بقتضى الفطرة الإنسانية، وبين هذين الطرفين وسط، هو الحجاب الشرعى، وهو الذى أدعوه إليه...»<sup>(11)</sup>.

والحجاب الشرعى هو كشف المرأة وجهها وكفها عند كل الفقهاء، وأجزاء آخرى من بعض أطراوفها الأخرى، عند نظر منهم، كما تحدث عن ذلك قاسم أمين.

\* وفي العمل: تدرج موقف قاسم أمين وترقى تبعاً لتطوره الفكرى إزاء تحرير المرأة... وهو هنا قد مر بمراحل ثلاثة:

١- ففى البداية: وهو مرحلة كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤ م كان يطلب تعليم المرأة، ويطلب كذلك أن تظل في البيت، خاصاً بها ومحبّبة به، ويتقدّم اشتغالها، لا «بـالرضايف العمومية»، بل «بـالأعمال المدنية» التي يقوم بها الرجال... وهو في التعبير عن هذه الفكرة يقول:

(1) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣.

«أنى لا أرى الفائدة التى يمكن أن تجنيها النساء بممارسة حرف الرجال ، بينما أرى كل ما سوف يفقدنـه ، فإن هذه الحرف سوف تحرقـهن عن المهام التى يبدوا أنهن خلقـن من أجلـها ، كما أن هذه الأعمال لن يجعلـهن أكثر فائدة للمجتمع . ولن تزيد من سحرـهن ، بل على العكس من ذلك . أن مشهد الأمم المتقدمة يملؤـنى حـنانـا ، كما يحرـك سرورـى منظر الزوجـة التى تعنى بـيتها ، في حين أـنى لا أـشعر بأـية عـاطـفة حين أـرى اـمرأـة تـهـلـ على فـي خـصـى الرـجـالـ ، مـسـكـةـ كتابـاـ في يـدـهاـ ، وـتـهـزـ ذـراعـى فـي عـنـفـ : وـهـي تـصـبـحـ بـىـ : (ـكـيـفـ حـالـكـ يـا عـزـيزـىـ؟ـ)ـ بـلـ لـعـلـىـ أـشـعـرـ بـشـىـءـ غـيـرـ بـعـيدـ عـنـ التـفـورـ .ـ

هل السيدات المؤلفات والسياسيات - (ولست أتحدث إلا عن  
اتخاذ حرفة الأدب ونحاراته) - هل هن حقيقة نساء؟ وما هي أوجه  
التشبه بين هذه الكائنات الالاتي رأين كل شيء ، وفقرأن كل شيء ،  
و فعلن كل شيء واللاتي لم تعدد وجوههن تختصر . وبين تلك  
الملائكة الالاتي ما يكدرن يرسن نظرة أو لفظة أو لمسة كف حتى  
تبتل عيوننا بالدمع وتفعم قلوبنا بالنشوة؟!

إنتي أحترق ادعاء النساء وتحذلقهن ، ولكتنى نصبر متخصص  
لأخذ المرأة قدرًا نسبياً من التعليم ، إنتي أتعى تربية النساء المصريات  
وسط الجهل المطلق ، بحسب أن تعرف المرأة دائمًا ما يحفي لكي تتفقن  
أبناءها بآدئي الأخلاق والفضيلة وتقدم لهم شرحة علمية  
لأشياء التي تحيط بهم ، يحجب أن تعرف دائمًا كيف تجيء ، دون  
أن تحضر ، عن تفاصيلات الطفولة التي لا تتقطع <sup>(١١)</sup>

### (٣) المصطلحات وأهميتها

٢ - وفي المرحلة الثانية: عر جلة كتاب "تحرير المرأة" سنة ١٨٩٩م، يبقى قاسم أمين على موقفه الرافض تولي المرأة "الوظائف العمومية"، ولكنها يتضور خطوة فيطلب لها أن تمارس . مثل الرجل، "الجميع الأعمال المدنية" . علاوة على شئونها الخاصة . . ويعبر عن موقفه الجديد هذا بقوله:

"إن الناظر في الأحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة، مثل الخلافة والإمامية، والشهادة في بعض الأحوال، لا يجد واحدة منها تتعلق بعیشتها الخصوصية وحريتها . وأن الشارع لم يراع في هذه المسائل القليلة إلا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة، وحصر الوظائف العمومية في الرجال؛ وهو تقسيم طبيعي جرئ على فتنه، إلى الآن، التمدن في أوروبا . (المملكة المرأة الأوروبية قد نالت حقوقها السياسية بعد) . . ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها إلى أعلى مرتبة تستحقها، وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الإسلامية إلى المرأة في جميع الأعمال المدنية . . ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجال . . يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي إلى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق" (١).

وقاسم أمين يرى أهلية المرأة المصرية، إذا تعلمت، لإجادة كل "الأعمال المدنية" التي تجدها المرأة الغربية . . كما يرى في ذات

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٢.

عاماً هاماً ينمي ثروة المجتمع ويدفع بتطوره إلى الأمام، فالمرأة عندنا طاقة معطلة واستثمار غير مستغل، بل لقد أصبحت عالة على ثمرة عمل الرجل... «فلا أن النساء، في كل بلد، يقدرن بنصف سكانه، على الأقل، فيقاوئن في الجهل حرمان من الانقطاع بأعمال نصف عدد الأمة وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى».

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من أن تشغّل، مثل الغربيّة، بالعلوم والأداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة، إلا جهلها وإهمال تربيتها. ولو أخذ يدها إلى مجتمع الأحياء، ووجهت عزيمتها إلى مجاراتهم في الأعمال الحيوية، واستعملت مداركها وقوتها العقلية والجسمية لصارات نفسها حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك، لا كما هي اليوم عالة لا تعيش إلا بعمل غيرها، ولكن ذلك خيراً لوطنيها، لما يتعيّن منه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه...»<sup>(١)</sup>.

٣- وفي المرحلة الثالثة: من تطوره الفكري، إزاء هذه القضية، مرحلة «المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠ م، يتحقق قاسم أمين على موقفه من قضية اشتغال المرأة «بالأشغال العمومية والوظائف العامة» أي العمل السياسي ووظائفه العليا، ولكن يتقدّم فكريًا عن ذي قبل، عندما يتعلّل للفروق القائمة بين الجنسين، والتي أهلت الرجل، دون المرأة، بهذه الوظائف السياسية العليا،

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١، ٢٠.

فبعد أن كان يرى ذلك تقسيماً فطرياً وأبدياً للعمل، نشأ عن طبيعة كل جنس من الجنسين، أصبح يراه ثمرة لتأهل الرجل ومرانه، وهو الأمر الذي حرمت منه المرأة وأبعدت عنه فرولنا طويلة، ومن ثم يعلق صلاح دخولها بهذه الميادين على اكتسابها هذه المؤهلات وذلك المران، وهمما في الإمكان، ولذلك فهو يرى أن حرمانها من هذه الوظائف السياسية العليا هو أمر مؤقت سيزول بزوال ما له من أسباب. . أما عبارته المعبرة عن فكره هذه، فهي التي يقول فيها:

«إنى ما طلبت ولا أطلب المساواة بين المرأة والرجل في شيء من المزايا والحقوق السياسية، لا لأنى أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية، حجرًا عامًا مؤبدًا، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعي، بل لأنى أرى أننا لا نزال إلى الآن في احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية، وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقاً، ويلزمها أن تقضى أعواماً في تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تنهي إلى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية»<sup>(١)</sup>.

هكذا رأى قاسم أمين قضية «عمل المرأة» . . . وهكذا تطور فكره إزاءها ما بين سنة ١٨٩٤ م وسنة ١٩٠٠ م.

\* \* \*

واليآن . . . لقد آن الأوان لنسأل هذا السؤال:

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦١

أية امرأة تلك التي رکز قاسم أمين حديثه عنها؟

وبنت أية طبقة من طبقات الأمة تلك التي سعى لتحريرها؟

لقد سبق لنا وأثبتنا أن قاسم أمين كان داعية مصلحًا يبشر بقيم المجتمع البورجوازي، ويدعو لفتح الطريق أمام مصر كي تتطور فتختلف عن عصر الإقطاع ورآها وتدخل إلى رحاب التنوير البورجوازي . . . والآن نقول: إن المرأة التي شغلت قضايا تحريرها عقل قاسم أمين، هي ، في الأساس ، المرأة البورجوازية ، امرأة الطبقة التي كان يتمنى إليها، بنت الطبقة الوسطى ، التي كانت متميزة عن بنيات الأرستقراطية الإقطاعية وكبار الملاك الذين يغلب عليهم الاتساع الشركي والشركسي والاتساع لعناصر التمثرين . . . والتي كانت متميزة كذلك عن بنيات الفلاحين .

ولم يكن اهتمام قاسم أمين بنساء الطبقة الوسطى تعصباً لطبقة الاجتماعية، ولا انغلاقاً على عالم خاص به من الناحية الاجتماعية، فهو بالتأكيد مصلح كان ينظر للأمة ككل . . . وإن غلبت عليه رؤية لونها انتهازه الاجتماعي . . . ولكن مبعث هذا الاهتمام أنه لم يكن يعلق أية آمال على نساء الأرستقراطية الزراعية، فهن مثل طبقتهن غرباء عن روح هذه الأمة وقضاياها المضطربة، يعيشن كضيقاتهن على هامش هذا المجتمع . . . ولا صلة بينهما إلا صلة الاستغلال الإقطاعي واستغلال ربع الأرض من الفلاح .

أما المرأة الفلاحية والناجحة والممارسة لحرفة من الحرف . . . فلقد

رأها قاسم أمين عضواً عاملاً في المجتمع وطاقة مشجعة . . . صحيح أنها لا تقرأ ولا تكتب . . . صحيح أنها غير « المتعلمة » . . . ولكن انخراطها في الحياة العامة مع الرجل ، وفي مساواة له ، قد جعلها « مثقفة » بالخبرة والتجربة ، فهي ليست قيادة على تطور المجتمع إلى الأمام ، وإن تكن لديها طاقات أخرى كامنة يستطيع التعليم أن يطلقها من عقالها . . إن بيتهما وبين الرجل ، في طبقتها ، مساواة إلى حد كبيراً

أما امرأة الطبقة الوسطى فإنها كانت موضع أمل ، بل عليها - مثل طبقتها - تعلق الكثير من الآمال في قيادة نهضة الأمة وتطورها . . . ومع ذلك فهى وإن « تعلمت » إلا أنها بمقاييس « الثقافة » دون امرأة الريف والحرفيين والتجار فهي الطاقة المعطلة حقاً و تماماً من بين النساء اللاتي تتعلق بهن آمال المصلحين . . . ومن ثم فإن اتخاذ قضية تحريرها محوراً لقضية تحرير المرأة عموماً هو أمر له ما يبرره ، خصوصاً من مصلح مثل قاسم أمين .

ونحن نستطيع أن نتأكد من صدق تحليلنا هذا إذا قررنا بعض عبارات قاسم أمين .

فهو في المقارنة بين امرأة الطبقة الوسطى والمرأة الفلاحية يقول :

«تساوت النساء عندنا في الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن إلا في الملبس والخلوى ، بل يمكن أن يقال : إنه كلما ارتفعت المرأة درجة في اليسر زاد جهلها ، وأن آخر طبقة من نساء الأمة ، وهي التي تسكن الأرياف ، هي أكملهن عقولاً ، بحسب حالها .

المرأة الفلاحية تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح، مداركهما في مستوى واحد، لا يزيد أحدهما على الآخر تقريراً، مع أنها نروي الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم، ولم تشع لهم تساوئهم في هذه الحركة، بل وتفن في الطريق، وهذا الاختلاف هو أكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معاً<sup>(11)</sup>.

ثم يعرض لذات القضية، وهو يتحدث عن «الحجاب».

فيقول:

«إذا أراد القارئ أن يتبين حقيقة ما أسلفته من مشاري الحجاب، على وجه لا ينفي للريب معه مجال، فما عليه إلا أن يقارن بين امرأة من أهلة تعلمت غيرهن أخرى من أهل القرى أو من التجارات في المدن لم يسبق لها تعليم، فإنه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلع «الإيغور» ولكنها جاهلة بالطوار الحبابة، بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها، وأن الثانية مع جهلها، قد أحضرت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار ونمارة الأعمال والدعوى وأحوالات التي مرت عليها، وأن كل ذلك قد أفادها اختباراً عظيماً، فإذا تعاملت اغلبت الثانية الأولى»<sup>(12)</sup>.

فالتعليم لبنت الطبقة الوسطى لم تغدها الثقافة والمعارف والخبرات بسم اكتسبت الفلاحية وتأجرة الثقافة والمعارف

(1) المصدر السابق، ج 2 ص ٤٥.

(2) المصدر السابق، ج 2 ص ٥٧.

وأخبرات الخاصة بالحياة من العمل . . وما ذلك إلا لأن الأولى تعيش مجتمعاً انتصاريَاً، غزلها فيه الحجاج عن مصدر المعرفة الحقيقة، بينما نساؤت الثانية مع رجل طبقنها، فخاضوا معاً عمار الحياة .

ذلك هي أفكار قاسم أمين عن مشاكل المرأة الشرقية، وأراءه في إصلاح أمرها .

هذه هي المرأة التي من أجلها أطلق صبحة النهضة والتحرير

## في التمدن الإسلامي

أحب أن ترجع إلى التمدن الإسلامي القديم، لأنني منه صورة ونحتلي مثال بما كان فيه، بار لأنه يحتوى على كثير من أصول حالي الحاضرة. لقد اشتغلت به الإنسانية، واستكملت ما كان ناقصاً منها في بعض أدوارها.. ولكن كثيراً من ظواهره لا يمكن أن يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية.

إن علينا أن نزن بميزان العقل، ونتدبر في آثار ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب احتفاظها، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفي ما يستقبل من الزمان.

وعلي كذلك أن سرني أولادنا على أن يعرفوا شئون المدينة الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وأثارها... [.]

فاسم أمين

تعنى «بالتمدن الإسلامي»، هنا، تلك الآراء والنظريات التي أبدأها قاسم أمين عندما عرض «الدين» الإسلامي، و«الحضارة» الإسلامية، و موقفه من القضية الهامة التي طرحت في عصره عندما اختلف الناس في الإجابة عن سؤال: هل نعود - ونحن ننهض ونستيقظ - إلى منابعنا الإسلامية نستوحيها ونحتذيها، أم نجعل وطننا قطعة من أوروبا فكراً وقِيماً وحضارة وعلماء وعملاً؟

وقاسم أمين لم يكن مصلحًا إسلاميًّا، وخلفيته الفكرية الإسلامية لا تزدهل لأن يكون كاتبًا إسلاميًّا، فضلاً عن أن يكون مصلحًا إسلاميًّا. بل إن طبيعته الخاصة وتكوينه الذاتي كان ينأيان به عن أن يكون الكاتب المتخصر والمهتم بأمور الدين. ولكنه كان، مع ذلك، غبيوراً على الإسلام، تستقره حملات خصومه عليه تحت ستار الحملة على المسلمين، أو حملات خصوم المسلمين عليهم تحت أعلام الحملة على الإسلام. ولقد كانت هذه البضاعة رائجة في عصره، لأنَّه كان يشهد المد الاستعماري الأوروبي على الشرق، وهو المد الذي استعاد على الغزو وبعض أسلحة الغزو الصليبية في العصر الوسيط.

ولعل ذلك هو الذي جعل أغلب حديث قاسم أمين في الإسلام، ودفاعه عنه يأتي في كتابه «المصريون» الذي رد به هجوم

دوق داركور على مصر والمصريين المسلمين . . . ونفي هذا الكتاب  
بوضوح قاسم أمين طبيعته ومزاجه حال هذا البحث ، فقول :

«لست أحب المخوض في حديث عن الدين ، لأسباب تتعلق  
بطبيعتي الخاصة ، وبحرصي على تراثنا الباقي العامة ، غير أن  
على في هذه امرة أن أفعل ما أكره ، لأن موضوع الدين قد سيطر  
على جميع أجزاء كتاب داركور ، بل إنني لأكاد أعتقد أنه هو الذي  
كان حافزاً على وضع كتابه ، ولهذا فإنني أستاذه في أن أخصص  
له بذوري عددة منظور»<sup>(11)</sup> .

ونحن إذا ذهبتا نطالع آراء قاسم أمين ونظراته الإسلامية فإننا  
نستطيع ، في نهاية المطاف ، أن نخرج بحصيلة يمكن بلوغها في  
عدد من النظريات والتقييمات ، منها ما هو صائب ومنها ما جاوزه  
الصواب .

١- في تلك التقييم الذي قدمه قاسم أمين لشخصية الإنسان  
السلم ومكوناته الذاتية ومتراجمة الحضاري ، وهو تقييم مختلف  
معه فيه ، ونراه قد تخلى ، وهو يخطه ، عن عنصر هام من  
عنصر منهجه الاجتماعي . . . فهو في النهاية يؤمن بوجود  
القوى التي تحكم التطور في الفواهر الطبيعية والاجتماعية  
والإنسانية ، ويؤكد - كما سبق وعرضنا - أن القوى التي  
حكمت وتحتمت تطور المجتمعات الأوروبية ورقيها لا بد لها  
وأن تفعل فعلها علينا نحن الشعوب . . . ولكن في نظراته  
الإسلامية سلك مثيلاً مناقضاً لمعطيات هذا النهج ، فنراه يقدم

(11) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٦

للشخصية الإسلامية صورة تبدي لها فيها قسمات خاصة تجعلها عصبة على التقدم والتطور والارتفاع، وتجعل منها نسيجاً إنسانياً مختلفاً اختلافاً جذرياً عن غيرها من الشخصيات، فالأمر هنا ينبع التمايز النابع من اختلاف الشخصية القومية إلى ما هو أدخل في التغاير «ال الطبيعي» بين المسلم وغير المسلم.

والذى نعتقد سبباً فى ذلك، هو أن قاسم أمين قد جعل ما هو «واقع» « الطبيعيًا وأيديًا» وليس «عارضًا» يتغير ويبدل بتغيير الأسباب وبدلها.

فهو مثلاً يقول: «إن للمسلم أفكاراً عن كل شيء، تختلف عن أفكار الأوروبي عن هذه الأشياء، حتى أن ما يلائم أحدهما لا يلائم الثاني إلا نادراً»<sup>١١</sup>.

وانطلاقاً من هذه المقولات يصور «شخصية المسلم» تصويراً يضع يدنا على ملامح «شخصية صوفية» متواكلة وانعزالية، لا تربطها أية روابط بالواقع في الحياة، حتى أن أحدها إذا ذهب يبحث عن ملامع هذه الصورة في نفسه أو غير أنه، بل وفي ذات جماهير الناس في عصر قاسم أمين، فإنه سيعود دون أن يجد لتلك الشخصية علاقة وثيقة بنا نحن جماهير المسلمين.. ويكتفى لبيان صدق قولنا هذا أن نغير تعريفة لشخصية المسلم: حيث يقول: «المسلم: أولاً لا يتضرر سعادته في هذه الحياة، إن له، أيًا كان

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٠٥.

فكرة، عالماً خيالياً تذهب إليه أحلامه طواعية، ويفضله على الواقع مهما كان ساخراً، فهو، عامة، لا يبالى كثيراً بكل ما يجتذب الأوروبى ويستحوذ على مشاعره، وإذا كانت الأطعمة الفاخرة والمعروضى السحرية الجاذبة، واللقاءات الجماعية الممتعة تحتل مكاناً كبيراً في حياة الغربين، فإنها قليلة التأثير على وجدان المسلم.

وكما أن المسلم، عامة، لا يقدر السعادة التي يبحث غيره عنها في هذا العالم، فإنه لا يؤمن بإمكان تحقيقها على الأرض، ومن هنا يعتكف في عالم أحلامه التي تغزل له المتع الوحيدة الخالصة الجديرة بشغل فكره، عزوفاً عن الثروة واللقب التكرييم ومنابع اللذة التي يدها أشياه عابرة خادعة، كأنما وجدت شحرره عن الطريق القويم، وهذا ما يجعله يبدو جاداً صموئلاً سوداوي المزاج.

وهو يخشى ممارسة الوظائف العامة خشية محاسبته على أفعاله ومساءاته عن وسائل الأداء، ويهرب من العالم، لأنه يجد إغراءاته حافلة بالمخاطر، ولا يهوى كثرة الكسب حرضاً على ضمان شرف الوسائل، وهو في الواقع يحمل احتقاراً عميقاً لهذا المعدن الخسيس - (الذهب، التقد) - ولعله لهذا ينفقه دون ندم، وقد ضاعت ثروات كثيرة من المسلمين في اندفاعهم لتجدة إخوانهم، فهل هناك دليل أكبر من هذا على ازدرائهم للنقد؟ وإذا كان كثير من المسلمين يفترضون بالربا، فلست أعرف مسلماً واحداً يفرض ويأخذ رباً على ذلك، ولعل الشيء الذي لا يكاد يصدق هو أنه لا يرى في اللذة الجنسية إلا إشباعاً سفيهاً لا حادى.

ال حاجات الجسدية ، حتى أن فنون الهوى التي أبدعها العشاق العباقة ، والشيء يهتم بها الغربيون ، لا تحدث أثراً في نفوس المسلمين الآتنياء<sup>(١)</sup> .

هكذا صور قاسم « الشخصية العامة » « العامة » المسلمين . . وهي صورة أقل ما يقال في تقدّها: إنها أخذت ما هو جزئي ونادر وشاذ ، فجعلته عاماً وصورة على أنه القسمات الأساسية للشخصية الإسلامية ، ومن هنا جاءت أشبه ما تكون ب بصورة يرسمها « سائح » عابر سبيلاً ، رغم أنها قد جاءت في كتاب يرسمه قاسم على « سائح » ويتقدّم فيه متّهج « السائحين » في رسم « العصور وتأليف المعلومات وتأليف الكتب عن المواطن التي فيها يسيّرون !

٢ - أمّا الإسلام ، تدين ، فإنّ فهم قاسم أمين له كأنّ فهمه بسيطاً وجيّداً في ذات الوقت . . فهو يرى أنّ الكثير مما أضيف إلى الدين ، مجرور العصور ، الدين منه بريء ، فالجائب « الديني » في « الخمارية الإسلامية » فخليود وسحدد ، لأنّ الإسلام ، كدين ، عند قاسم أمين ، هو حركة إصلاح للمسيحية وتقويم لأنحرافات وتحريفات الديانات التي سبّفته إلى الظهور . . وبعبارة هو: « يستطيع المتأمل المنصف أن يرى أن مهمة محمد - صلّى الله عليه وسلم - كانت دينية بأقلّ مما كانت سياسية ، فمن وجهة النظر الدينية المبحثة ، أراد النبي ، بساطة ، إصلاح المسيحية ، بإنقاذ وحدانية الله التي تعرّقت في التالوت الغامض والغصى على التفسير ، كما أراد إدامة

(١) المقدّم السابق . ج ١ ص ٣٠٨ - ٣٠٩

الخرافات السوقية والأشكال الرمزية المستعارة من التوثيقية الرومانية والإغريقية<sup>(١)</sup>.

هكذا، ببساطة وعمق، الإسلام كدين.

وعلى الذين يلتهمون هذا الدين البسيط أن يذهبوا إلى مصدره الأوثق: القرآن، ثم إلى قلة من الأحاديث الصحيحة التي تجمع عدة شروط: شرط الصحة رواية.. وشرط تعلقها بأمور الدين.. بأن تكون تفسيرًا المعجم في القرآن مثلاً.. وشرط موافقتها لمعنى القرآن وروح آياته.. أما ما عدا ذلك من الأحاديث، حتى ما صح منها ولكن كان موضوعه الأخلاق أو شؤون الدنيا، فهو ليس من الدين.. ذلك «أن أقوال النبي لا تشكل جزءاً من الدين»، ومن الطبيعي أن تتحلى بهذه الأقوال تلك المحادثات الآلية والنصائح الخلقية، والحكم الفلسفية التي تتضمن، دون شك، نصائح قيمة، ولكنها لا تشكل التراثات وواجبات دينية.. كما يجب أن تتحلى أيضاً كل ما ليس له علاقة بالفقه والتشريع، وتبقى بعد ذلك الأحاديث القليلة التي تفسر أو تكمل التوجيهات التي يتضمنها القرآن الكريم، والتي لا تعد جزءاً من الدين إلا بعد تحقق حادث من روايتها عنه أو بلاحظة تطابقها مع نص القرآن أو روحه..<sup>(٢)</sup>.

وبسبب من بساطة هذا الدين كانت سماحته مع العالم

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢٦.

والعلماء، حتى من اختلف مع أصوله فمغطياته، إذ «لم يتحدث في أية لحظة من تاريخ ديننا الإسلامي أن ثارت حرب ضد العلم، وقد عاتي من أشد النظريات مادية، فلم يسيء أبداً معاملة واحد من العلماء، وقد أدن لكل المعتقدات أن تخاب جنباً إلى جنب»<sup>(1)</sup>.

ومن هنا، ولهذا الفهم المستثير الذي فيه قاسم أمين الدين الإسلامي، كانت إشارته الهامة إلى تلك الإمكانيات غير المحدودة المفتوحة أمام انتشار الإسلام في أوروبا.. فانهضه والاستمارة والعقلانية التي سادت وتسود المجتمعات الأوروبية لا يتلاءم مع أهلها إلا الدين يتميز بهذه البساطة والعلقانية والبعد عن المخافة والاقتصاد في الغيبات.. وهذا الدين هو الإسلام.

ولقد كان قاسم أمين، برأيه هذه، يشارك عدداً من المستثيرين والأوربيين الذين دخلوا الإسلام، وآخرين منهم لم يسلموا ولكنهم رأوا الإصلاح الديني البروتستانتي هو استعارة واستفادة جزئية من روح الإسلام و تعاليمه. وأن خط سير أوروبا نحو المزيد من الاستمارة والعلقانية سيدفع بمستثيريها شيئاً فشيئاً إلى الإسلام.

أما عباراته التي صاغ فيها فكرته هذه فهى التي تقول:

«إنى أبعد ما أكون عن التتعصب، غير أنى أعتقد أن الإسلام هو أفضل رأية يمكن أن تجمع حروتها البشرية كلها متحدة في عقيدة

(1) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢٥

واحدة؛ ذلك أن الإسلام ببساطته، وباختفاء الصوفية من نصوصه، وبإيجابيته الخالقة، وإمكان تلاوته ببساطة أصلية مع كل التطورات، وبتسامحه الكبير الذي يتميز به، يجمع، في رأيي، مؤهلات تكفي لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله، وذلك هو ما أعتقد أنه الحلم الذي كان يطمح إليه القرآن، والذي أوشك أن يتحقق في إحدى اللحظات؛ ذلك أنه دين الفطرة في شكله البسيط، المؤهل لازفاء الجزر، الأعظم من الشربة التي لا تستطيع، رغم كل شيء، أن تقبل الحياة دون أن يعيش في وجدانها أمل خيالي رائع!<sup>(١)</sup> إن الإسلام الذي ظل طويلاً يتناقله النور في العالم كله، لا يزال يملك ذخيرة ثقافية وعجمية خلقيّة تتبع له أن يصل حلقات السلسلة المحظوظة، وأن يعيد إيقاد الشعلات المنطفئة!<sup>(٢)</sup>

هذا عن الإسلام كدين.

٣- ويدرك قاسم أمين كيف شوّه الواقع البائس تلك الصورة الجميلة لحقيقة دين الإسلام... وهذا الواقع البائس يتمثل عنده في «الفقهاء ورجال الدين».

صحيح أن الإسلام ليس به «سلطة دينية»، ومن ثم فليس به ما يسمى «رجل الدين»، وكما يقول: «فإننا لا نملك هذه المؤسسة الهائلة المهيّبة التي تسمى الكنيسة، وليس هناك شيء يمثل السلطة

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٣٨.

الدينية وسلطنا، إن كل مسلم هو نفسه سلطاناً روحه، ولبس  
علمائنا أو شيوخنا أية شخصية عامة أو دينية، وليس لهم من  
السلطة إلا ما نعرف به نحن لمعارفهم»<sup>(١)</sup>.

ولكن هذا المبدأ الإسلامي الجوهرى الرائع شيء، والتطبيق  
الواقعى شيء آخر، فكما قلنا الأمم والديانات الأخرى فى أمور  
كثيرة، قلناهم فى ظهور فتنة من «علماء» الدين، اهتموا الدين  
مهنة، فتحولوا، عملياً إلى «رجال» دين! ثم كان لهم، تاريخياً،  
الدور المعرف للتقدم الحضارى للمسلمين، كما يقول قاسم أمين  
مصوراً للدور السليم الذى لعبه نفر من الفقهاء فى تاريخنا  
الحضارى . . . فلقد أنسىت المدينة الإسلامية على الأساس الدينى  
والأساس العلمى . . . ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول  
نشائه، وكانت أصوله ضرورياً من القطبون لا يؤيد أكثرها بشيء من  
التجارب، كانت قوة العلم ضعيفة يحاذق قوة الدين، فتغلب  
الفقهاء على رجال العلم، ووضعوهم تحت مراقبتهم، وزجوا  
بأنفسهم فى المسائل العلمية، وانتقدوها . . . وما زالوا يضعون على  
رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة  
العلم فهجروه، وانتهت بهم الحال إلى الاعتقاد بأن العلوم  
جميعها باطلة إلا العلوم الدينية، بار غلوا فى دينهم وشطروا فى  
رأيهم حتى كانوا فى العلوم الدينية نفسها إنها لا بد أن تتفق عند  
حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، فقرروا أن ما وضعاً بعض  
الفقهاء هو الحق الأبدى الذى لا يجوز لأحد أن يخالفه!<sup>(٢)</sup>

(١) المصدر السابق، حد ١ ص ٢٦٠

(٢) المصدر السابق، حد ٢ ص ٢٠٤

وإذا كان التطور قد أصاب الكثير من مناحي حياتنا منذ مطلع القرن التاسع عشر، وفعل فعله في عدد غير بسيط من الدوائر الفكرية، فلقد ظل التخلف والجمود طابع الكثيرون من فقهائنا وشيوخنا ومذهب مراكز التوجيه الديني الرسمية. . وفاسد أمين يصور عالم بعض هؤلاء الشيوخ والفقهاء، عندما يقول:

... تلك هي الحال التي تردى فيها بعض شيوخنا، الذين كان عليهم أن يقدموا لنا وصفاً تفصيلياً عن السماء والجنة والشاز توحى لنا دقتها بالإيمان بعمرتهم لها معرفة حقيقة، بينما هم يجهلون كاي شيء عن الأرض! وليس في هذا مما يثير الدهشة: ذلك إنهم بدلاً من أن ينظروا إلى العلم المعاوئ بوضوح قيمة جميع المعلوم، بجدهم لا يجمعون المعرفة الأولى التي يعيها تلميذ المدرسة الابتدائية، ولا يوسعون أبداً نطاق دراستهم، ولذلك فإن هؤلاء الشيوخ هم كتب راتعة فاقدة، لكنهم فقدوا منذ وقت طويلاً ملكة التحليل والتحليل، وهم لا الجهلة هم الذين يدعون فيهم العلامة الدينية وقدرتهم على تفسيرها، وينسبون من أنفسهم حسنة الرسالة السامية، ويدعون السهر على حفظ الدين وعلى نشره وحسن تطبيقه. . إن هؤلاء ليسوا إلا أدعية شديدة الوقاحة، يختفون الذكاء ويحولون بين الفكر وبين البحث، ويذمرون الوصايا الزرقاء، ويتذكرون الحيل للإفلات من قسم أو التحرر من أحد الواجبات الدينية. . إننى أعلم، مع ذلك، ضرورة إدخال إصلاح محدد يتمثل في تزويد المرشحين للدراسات الدينية بمعرفة متفقية وعلمية، حتى يستطعوا بوساطة التعليم أن

يتزعموا من عقول بعض المسلمين جميع المعتقدات السائدة التي تهدى بخنق الدين، وأن يرشدوهم إلى طريق العودة إلى ساطة قواعد الإسلام الخمسة، فقد كانت وحدتها كفيلة بنشر الإسلام في جميع أرجاء العالم، ولا تزال وحدتها قادرة على إنقاذه من كارثة مدمرة... (١١).

ـ أما الحضارة الإسلامية، وبالذات التنظيم السياسي في هذه الحضارة، فلقد اختلف إزاءه موقف قاسم أمين، أو تغير وتطور في تقييمه لهذا الجانب من جزئيتها... ولقد كان تعريضه لهذا الجانب الهام يأتي ب المناسبة الحديث عن صلاح هذه الحضارة التاريخية كيدايل للتخلص، وأيضاً كيدايل للأخذ بالنبط الأوروبي الذي جاء إلى الشرق في ركاب الغرابة؟

فنجن نلمع قاسم أمين في مرحلة كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤م بميل إلى وحدة التنظيم ونظام سياسي إسلامي، كفحة في حضارتنا الإسلامية، وهو يرجع ازدهار المسلمين وحضارتهم إلى تطابق نظمتهم السياسي مع تعاليم دينهم، فلما أهملوا تعاليم الدين انهار كل البناء... فالعجب هنا، كما يراها، ليس في النظمات السياسية... فهو يقرر أن المسلمين عرفوا العظمى حين كان لهم تنظيم سياسي إسلامي، وخاصة حين كانت حبّتهم وسلوكهم متطابقين مع الأخلاقيات والوصايا الإسلامية التي بدأت مأساتها يوم ابتعدوا عنها، ولو كان لى أن أحدد أسباب تخلف العالم

(١١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٦٦-٣٦٨

الإسلامي نوّضحت إهمال تفاصيل الت تعاليم الدينية على رأس العوامل الهامة لذلك . . . .<sup>(١)</sup>

ولكذلك يرجع عن هذا الرأي في مرحلة كتابته "تحريم المرأة" سنة ١٨٩٩م و"المرأة الجديدة" سنة ١٩٠٠م، فينكر أن يكون المسلمين قد عرفوا النظمات السياسية أصلاً في مجتمعاتهم وتاريخهم، ويرجع انهيار حضارتهم وشروع الاستبداد بالمرأة في تاريخهم إلى افتقادهم هذه النظمات، فيقول مثلاً:

"تجزدت الجماعات الإسلامية (أى المجتمعات)، على اختلاف الأزمان والأماكن، من النظمات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكم، وتحول للممحكمين بمعزلة المحاكمين بالقول عند الخدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام، بل أحدث حكومتها الشكل الاستبدادي دائمًا، وأسماء حكامها في التصرف . . . بل لعبوا بالذين تفسة في أغلب الأزمنة، ولا يستثنى منهم إلا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة إلى غالبيتهم . . .<sup>(٢)</sup>

ثم يعود إلى تقرير الفكرة في مرحلة تالية ومكان آخر فيقول:

" . . . وأما من جهة النظمات السياسية، فلأننا مهتماً بدقن البحث في التاريخ - (الإسلامي) - لا نجد عبد أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاماً، فيان شكل حكم منهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد، يحكم عوطفين غير مقيدين . . . ربما

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٠٦

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦

يقال: إن هذا الخليفة كان يولي بعد أن بايعه أفراد الأمة، وإن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدّة من الشعب الذي هو صاحب الأمر.

ونحن لا ننكر هذا، ولكن هذه السلطة التي لا يتمتع بها الشعب إلا بضمّع دفائق هي سلطة لفظية، أما في الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر.

ومن الغريب أن المسلمين في جميع أزمان عذّلهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية، ولم يتوصلوا إلى ما وصلت إليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظمات الازمة لحفظ مصالح الأمة وحررتها، فقد كان تلك الأمة جمعياتٍ نياية ومجائسٍ مبالية نشترط بها مع المحاكم في إدارة شئونها.

وأغرب من هذا، أن أمراء المسلمين وفقهاءهم لم يشكروا في وضع قانونٍ بين الأعمل التي وجدوا أنها تستحق العقاب ويحدّدوا العقوبات عليهما، بل تركوا حق التعزيز إلى المحاكم يتصرّف فيه كيف يشاء، مع أن بيان الجرائم وعفافها هو من أوليات أصول العدالة.

ولست محتاجاً أن أقول: إنهم ما كانوا يعرفون شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية... فإذا كانت حاليهم السياسية هي كما قرّى، فما الذي يطلب مننا أن نستعيره منها؟<sup>(١)</sup>

ونحن نعتقد أن هذا التقييم الذي أعطاه قاسم أمين لقصمة

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

النظام السياسي في حضارتنا هو تقسيم ظالم وغريب، قد يحذف صاحبه الصواب . . كما نعتقد أن أهم الأسباب التي تكمّن وراء ذلك هي :

ويكفي أن ندل على خطأ قاسم أمين - هنا ، وهو ينفي أن يكون المسلمين قد وضعوا قانوناً يحدد الجرائم والعقوبات - بما قاله هو نفسه عن هذا القانون وعن الفقه الإسلامي ، عندما أشار في كتاب «المصريون» إلى أصالة هذا الفقه ، ووصفه بأنه «أعظم نصب أقامه العقل البشري» ، ونفي أن يكون متفقاًً عن القانوني الروماني ، وأكد أنه يستمد أصالته من آيات القرآن وأحاديث الرسول (١١) .

لكن قاسم أمين نظر في «التاريخ»، والتاريخ السياسي بالذات، فوجد قسمة الاستبداد الفردي بالحكم تعطى المباحثات التاسعة من قرون الحكم الإسلامي والبلاد الإسلامية، ثم هو لم يميز بين تراث هذه الأمة الحضاري وإيداعها في السياسة والنظم السياسية والتشريع وبين حيلولة النظم الاستبدادية بين هذه النظم وبين التطبيق.

٢١٦ حادث المتنبئ

بـ- لم يلتفت قاسم أمين إلى دراسة الحركات الفكرية والتيارات الثورية وأحزاب المعارضة التي استمرت طوال عصور التاريخ الإسلامي تجاهد كي تضع في التطبيق ثمرات اجتهاد هذه الأمة الفكرى في القانون والشوري والعدل الاجتماعي . . ولو أنه التفت إلى دراسة هذه القسمة لرأى أشياء أخرى مشرفة تقف إلى جانب ظلمات الحكم الاستبدادي الذي عرفه هذا التاريخ .

جـ- وأخيراً . . فلو أتيحت له فرصة الاطلاع على تراث هذه الأمة في الفكر الاقتصادي ، وما كتبه علماؤها في (الأصول والخارج) لرأى جذوراً عميقة لأكثر النظريات الحديثة جذوراً في العدل والإنصاف ، ولما قال إن المسلمين «لم يعرفوا شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية» .

بل نو قد اطلع على قوائم عناوين تراثنا في الفكر السياسي والاقتصادي - قوائم العناوين فقط - لترداد قبل أن يصدر هذه الأحكام !

دـ- أما قسمة «ال الفكر الاجتماعي » في الحضارة الإسلامية والمدن الإسلامية ، فإن قاسم أمين يعجب بها كل الإعجاب ، كما أن رؤيته لها تستحق هي الأخرى من التقدير والإعجاب .

فهو يرى أن الإسلام يتميز بالانحياز إلى « نوع من الجماعية » و«الاشتراكية» قد أقامه على رفض «الفردية» التي أشعلت بغضه الصراع النطبي في المجتمعات الأوروبية ، وغلى استبدال هذه «الفردية» بـ«الاشتراك» الفقراء في الأصول التي هي هي حوزة

الأغبياء.. ويسبب من هذه الفلسفة التي هي محور الموقف الاجتماعي للإسلام، فإن "العمل" هو المعيار الوحيد للكسب والحيازة والدخل الاقتصادي، وإن الشعار - الاشتراكي - القائل: "من كل حسب عمله"، هو شعار إسلامي تماماً ومحبلاً من المسلمين بالتأكيد.. ويسبب من هذه الفلسفة أيضاً في الإسلام يرفض الحواجز الطبقية التي عرفتها وتعرفها المجتمعات التي فرقتها الملكية والامتيازات إلى طبقات ثابتة، كما يرفض أن تكون الوراثة أو الشروة معياراً يحل محل العمل في كسب الحاجة والثروة.

"فالإسلام لم يعرف فقط امتيازات الميلاد أو الشروة وقد سبق بهذا أكثر النظم السياسية ثورياً بأكثري من ألف عام.. فليس من العدالة أن تكون صدفة الميلاد في إحدى البيشات مصدرًا لوضع متميزة.. لقد كان المبدأ القيمي عند بعض الاقتصاديين، والقائل: (من كل حسب عمله) وسيبقى، دائمًا شعارنا، أننا جميعاً أبناء أعمالنا.. لقد نظم الإسلام توزيع الثروة، وأعلن اشتراك القراء في ملكية أموال الأغبياء.. وهذا - كما هو واضح - حل للمشكلة الاجتماعية بواسطة نوع فريد من الجماعية.

أو لا ترى مثل هذا الدستور ما يوفّق بين المصالح وما يهدى جميع الخواطر؟ أليست هذه الاشتراكية أكثر سعراً وأقرب إلى الواقع العملي من تلك النظم التي تتحدث عنها أوروبا، والتي يتجلّى قصورها وصعوبتها تنفيذها؟ إنني أشهد في أوروبا تفاصلاً حائرة، وعقولاً قلقة، وصراعات بين الطبقات تتزايد حدتها، فيرتعن الأغبياء، ويصرخ القراء، وتتراءى أعراض زلزال هائل

رهيب... إن أي مجتمع إسلامي لا يمكن أن يقوم إلا على تنظيم ديني قراطي، فهو ينبع على أساس فكرة المساواة والإخاء... ولا يعبأ بآداب المجتمعات الشكلية، في أوروبا، والتي تفصل بين الأغنياء والفقراة، بين النساء وال العامة، فالكل داخلي في الكل، وامتراع الطبقات كامل.

أو يمكن بعد أن يعرف الإنسان كل ذلك أن يتذوق شيئاً آخر  
ويحبه!!<sup>(11)</sup>

فيه هنا لا يسمى بين «الجماعية الإسلام» وأشتراكيته» وبين تطهيرهما في الفكر الأوروبي. بل يميز بينهما، ويفضل المنطلق الإسلامي لتنظيم المجتمع على أساس من فلسفته - فلسفة الإسلام - في هذا الميدان.

ـ وأخيراً. نأتي إلى تلك النقطة الهمة في فكر قاسم أمين عن «التمدن الإسلامي»... والخاصة بال موقف من « نوع» الحضارة التي يدعو إليها قوله، ويحيد أن تكون طريقهم اتجاهوا التخلف «المصري - العثماني»، ويشيد باعتمادها غطاء للتقدم والتطور.

فمعلوم أن عصر قاسم أمين كان استمراً للعصر اليقظة والنهضة والتجدد الذي بدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر... ومعلوم كذلك أن دعوة النهضة كانت تحوز عليهم دعوتان أساسيتان:

(1) المصدر السابق، ج 1 ص ٢٥٩، ٢٦٤

الأولى: ترمي إلى الأخذ بنمط الحضارة الغربية كاملاً، و تستهدف جعل فنون ثم الشرق - قطعة من أوروبا.

والثانية: ترمي إلى الاستفادة من «أدوات» النهضة والحضارة الأوروبية، مع جعل منطاقتنا عربية إسلامية، وطابعنا عربياً إسلامياً، وبناء حضارة عربية إسلامية معاصرة ومتضورة، تتميز كثيراً عن حضارة الأوروبيين.

ولقد بدأ قاسم آمين ميلاده وإن يكن في تردد شديد - إلى التيار الثاني، ثم عاد فانخرط تماماً في سلك دعوة التيار الأول.

فهو في مرحلة كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤م يقارن بين الحضارة الأوروبية وبين الحضارة الإسلامية، ثم يحكم بأن الظفر إثنا هون من نضج الحضارة الإسلامية الأصيلة. يقول: إنه «إذا كانت توجد اليوم حضارة إسلامية خالصة إلى جانب الحضارة الأوروبية، فإن الأصلة هي الظاهرة»<sup>(١)</sup>.

ثم يعود فيتعدد في الاختيار بين الحضارتين، وخاصة عندما يكون المقام خاصاً بالحديث عن «الاختيارات» والبدائل المطروحة أمام النهضة المصرية. يتعدد، ولكن ينبع إلى أن مصر قد اختارت، بالفعل، التمط الأوروبى، وأن العودة منه تكاد تدخل في عداد المستحيلات... ذلك أن أمم مصر «طريقين: العودة إلى تقاليد الإسلام، أو محاكاة أوروبا»، وقد اختارت الطريق الثاني.

«وليس على أن أحكم على جداره هذا الاختيار، لقد مضت

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٠٥

في أثر حركة الحضارة الأوروبية التي تجتاح كل مكان، والتي تبدو استحالة مقاومتها.. أنها قد خطت اليوم بعيداً في هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه، إن مصر تتحول إلى بلد أوروبى بطريقة تثير الدهشة، وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وأثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وعذاؤها وثيابها ترسم كلها بطبع أوروبى، إنها تعمم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله، وتجدد كل الأفكار التي تحرك حماس أوروبا صداتها هنا»<sup>(١)</sup>.

وفي مرحلة كتاب «المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠ م يحسم قاسم أمين هذا التردد، وذلك عندما يقرر أن التمدن الإسلامي ليس فيه، حضارياً، ما يصلح للعطاء المعاصر وأن دراستنا له يجب أن تستهدف الدراسة التاريخية، للتقييم، وكتشف الجذور، والاستفادة من الأخطاء حتى لا تكرر... أما طريق اليوم والغد فلا علاقة له بهذا النمط الحضاري الذي ساد في تلك العصور... يقول:

«إنه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الإسلامي ويقف على ظواهره وخفاءه، لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة، ويجب عليه أن يعجب به لأنّه عمل اتفقّت به الإنسانية وكملت به ما كان ناقصاً منها في بعض أدوارها، ولكن كثيراً عن ظواهر هذا التمدن لا يمكن أن يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية... يجب علينا أن نلقيت إلى التمدن الإسلامي القديم، ونرجع إليه، ولكن لا لتنسخ منه صورة ونحتذى مثلما كان فيه

(١) المصدر السابق، ح ١ ص ٢٦٣

سواء بسواء، بل لكي نرى ذلك التمدن بغير ان العقار، ونتدبر في أسباب ارتفاع الامة الإسلامية وأسباب انحطاطها، وستخلص من ذلك قاعدة يكتنأ أن تقييم عليها بناء تستقى به اليوم وفي ما يستقبل من الزمان . . . .

لهم يزيد الأمر وضوحاً عندما يقول:

«إن تمسكنا بالماضي إلى هذا الحد هو من الأهواء التي يجب أن تهضم جميعاً لمحاربتها، لأنه ميل يجرنا إلى التدنى والتقهقر، ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل في فهو من الا شعورنا بأثنا ضعاف عاجزون عن إنشاء حالة خاصة بنا تليق بزماننا، ويمكن أن تستقيم بها مصالحة، فهو صورة من صور الانكماش على الغير، كأن كلامنا ينادي نفسه فما لأنها: اتركى الفكر والعمل والوعاء، واستريحى فليس في الإمكان أن نأتى بابدع مما كانا

\*\*\*

هذا هو الداء الذي يلزم أن ينادر إلى علاجه، وليس له من دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يعرفوا شئون المدينة الغربية ويقظوا على أصلها وفروعها وآثارها!»<sup>(11)</sup>

ذلك هي أفكار قاسم أمن ونظراته فيما سماه «التمدن الإسلامي» . . . وهي أفكار ونظريات جمعت بين ما هو خطأ وما هو صواب، وشهد بعضها تطوراً من الصواب إلى الخطأ أو من الخطأ إلى الصواب!

(11) المصدر السابق، ج 2 ص ٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩

## مصر.. والمصرية.. والمصريون

[إن المصريين - مسلمين وأقباطا - يتسمون إلى جنس واحد.. والمصرى لا يرعب الموت ولا الألام، غير أنه يتحمل بعض الإهانات؛ لأن السلطة أفتاده وعيه حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نروانها! إنه لا تنتصه القوة الجسدية ولا الطاقة المعنوية.. إن ما يحتاج إليه هو النهوض والتوجيه السليم، لكنه يصبح قوة عظمى.

وليس يباح لإنسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه، ولا أن يغصب عليه إلا كما يغصب الولد من أبيه غضباً غزوجاً بالأسف والحنق..]

فاسق أمين

يؤمن قاسم أمين بأن المصريين شعب واحد متعدد.. فليس بين مسلميه ومسحييه فروق عرقية قديمة، لأن المسلمين المصريين هم أقباط أسلموا، وليسوا أفادين من شبه الجزيرة العربية كما يظن بعض السلاج من الجاهلين أو سيئي النية!

وهو يؤمن كذلك أن اختلاف المصريين في الدين لم يكن له تأثير في يوم من الأيام على وحدتهم الوطنية الواسعة، تلك الوحدة القائمة على قسمات الوطنية بمعناها الحديث والمصالح الوطنية الواحدة التي تجمعهم جميعاً بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات.. فعنه أن «من المؤكد أن المسلمين المصريين الذين نراهم في المدن، وخاصة في الريف، ليسوا من نسل العرب، وليسوا عرباً إلا باللغة والدين، ونكتفي ملاحظتهم لافتتاح بأنهم نفس التمادج القبطية، وإنني أؤمن - وهو ما تؤكد الملاحظة أيضاً - أن المسلمين المصريين ليسوا إلا أقباطاً اعتنقوا الدين الإسلامي».

ويشكل المسلمون والأقباط - رغم اختلاف الدين - كلاًًاً متناسقاً يتحدد نفس اللغة، ويرتدى نفس الزياب، ويمارس نفس العادات، ولم يحدث قط - منذ بدأوا يعيشون معاً جنباً إلى جنب - أن وقع بينهم خلاف جاد، لقد ربطت المأسى المشتركية بينهم بعاطفة وطنية، جعلتهم يرثّلّون بمحاجة الجماعة فوق

الاختلافات الدينية، ويكتفى أن نذكر هؤلاء الذين يتحمّلون فصم وحدتنا، بأن الأقباط أثناء ثورة عرابي كانوا يسيرون مع المسلمين يدًا في يد، وأنه لم يطف بخيال مسلم أيامها أن يحرك القلق في قلب قبطي، بينما وصف المسلمون الآثارك والشركس بأنهم أعداء مصر! <sup>(١)</sup>

فتحن هنا يزاوج شعب واحد، تربط أبناءه جمیعاً روابط الوطنية بمعناها الحديث.

وقاسم أمين يدرك دور النهضة الحديثة التي شهدتها مصر منذ حكم محمد على في تكوين هذا «الوطن» المصري الحديث... ففي ظل هذه النهضة قامـت «الدولة المدنية» الحديثة، ويرزـت «الحقوق الموقـنة» لكل المصريـين كرـباط يعلـو على غيرـه من الرـوابط الاعتقـادية... وفي ظلـها كذلك أطلق العنـان، إلى حدـ كبيرـ، لـلـكـاتـ الإـنسـانـ المـصـرـى فـأـبـدـعـ وـأـثـبـتـ جـدارـتـهـ بـمـرـأـةـ الـخـصـارـيـ العـرـيقـ فـيـ كـلـ الـمـيـادـينـ... وـبـسـبـبـ كـلـ ذـلـكـ عـرـفـ الـإـنسـانـ المـصـرـىـ معـنـيـ الـافـتـخارـ الـوطـنـىـ وـالـاعـتـزاـزـ بـالـوـطـنـ،ـ مـاـ جـعـلـهـ يـقـارـنـ نـفـسـهـ وـوـضـنـهـ بـأـرـقـىـ الـأـوـطـانـ دـوـنـ أـنـ تـحـوـلـ عـقـدـ التـقـصـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـاعـتـزاـزـ بـمـاـ لـهـ مـنـ طـاقـاتـ وـمـاـ أـحـرـزـ وـيـحـرـزـ مـنـ إـنجـازـاتـ.

... فيـومـ تـشـكـلـ الـوـطـنـ الـمـصـرـىـ،ـ أـوـ وـطنـ الـمـصـرـىـ عـلـىـ يـدـ محمدـ عـلـىـ الطـيـبـةـ،ـ لـمـ يـخـلـ الـمـصـرـيـوـنـ بـدـمـهـمـ فـيـ سـبـيلـ آنـ يـضـفـوـاـ عـلـىـ وـطـنـهـمـ أـرـوـعـ بـرـيقـ مـمـكـنـ...ـ إـنـ الـمـصـرـىـ لـيـسـ جـبـانـاـ

(١) المصدر السابق، جـ ١، صـ ٢٥٧، ٢٥٨

البستة، وإنه لا يرعب الموت ولا الآلام، غير أنه يحتمل بعض الإهانات، لأن السلطة أفقدته وعيه، حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها، إنه لا تنقصه القوة الجسدية، كما لا تعوزه الطاقة المعنوية، إن ما يحتاج إليه هو النهوض، والتوجيه السليم لكي يصبح فوهة عظمى<sup>(١)</sup>.

وإن تلك الإهانات والمظالم التي توقعها السلطة الجائرة بالإنسان المصري، يجب - في رأي قاسم أمين - ألا تجعل آثارها السلبية عبئتنا وبصائرنا نضل وترى عن إدراك الجوهر الحقيقي والرائع لذلك الإنسان المصري الأصيل.. فلقد يستخفى هذا الجوهر تحت مظاهر الفقر والآلام، ولكنه أبداً لا يغيب ولا يذوب ولا يزول.. «صحيح أننا لا نزال نعرف شقاء كبيراً في ويفنا، فالفلاحون والأطفال يعيشون في حالة حرمان من النظافة وفي إملاق مثير للشفقة.. غير أنه تحت هذه القشرة من وحل الفقر يتجلى الجسد نظيفاً دائماً، بفضل الوضوء خمس مرات كل يوم.. وغالباً ما تشمئ فوق هذا الجسد - كما تشمئ الزهرة - رأس ذكية!»<sup>(٢)</sup>.

ولقد دعت هذه النظرة الموضوعية والرؤى العميقـة قاسم أمين إلى أن يدعـر قـوـمة إلى التميـزـ ما بين النـقـدـ المـوـجـهـ لـلـوـاقـعـ بـهـدـافـ إـصـلـاحـ وـنـطـوـيـرـهـ، وـمـاـ بـيـنـ ذـالـكـ النـقـدـ الـهـادـفـ إـلـىـ الـاسـتـعـلاـءـ

(١) المصدر السابق، جـ ١، صـ ٢٦٤، ٢٦٥

(٢) المصدر السابق، جـ ١، صـ ٢٥٦

على الوطن والبراءة من الانتماء إلى «المصرية»، فقال قوله:  
الرامعة:

إله لا يباح لانسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه، ولا أن  
يغضب عليه إلا كما يغضب الولد من أبيه غضباً مزروجاً بالأسف  
والخنو! .

وهذا «الغضب» يعني عنة أن تنهض نحو «باتجاه عيوبنا  
بأنفسنا، وعدم إخفاء شيء منها، حتى لا نغفل عن تلاميذنا، إن  
ذلك أولى من أن يلقيها يوماً في وجهنا عدو لنا!»<sup>(1)</sup> .

أما هؤلاء الذين يتخذون سبيلاً الاستعلاء على الوطن وأهله،  
محتجين بأن لهم أصولاً تركية أو عربية - غير مصرية - فإن قاسم  
أمين يسخر منهم وبهاجسهم، ويراهم خارجين على الراجح  
الذي يقتضي احترام جوهريات الفوبيات وقساماتها الأساسية . . .  
يقول: ذلك «الآن أهم شيء يحفظ الأم ويريد رفعة شأنها هو  
احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية، مثل: الدين، والوطن،  
والسلطة العمومية، والعائلة، والعلم، والفضيلة، وكل عمل  
شريف أو جميل أو نافع .

ونحن نعاشر المصريين، وبالأسف، لا نحترم وطننا، ولا  
نعرفه، وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار في تحكم عليه  
كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطني لهم بحال  
من الأحوال. وفانا أن كل عيب منسوب له هو منسوب في

(1) المقدمة السابقة. حد أقصى ٢٢٤

الحقيقة لنا، حتى أن كلمة (فلاح) التي كان الأتراك يستعملونها في مقام الذم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصرى، اتخدتها المصريون عنواناً على احتقار بعضهم بعضًا.

ومن هذا القبيل أيضاً نرى بعض الأشخاص الذين ولدوا في هذه الديار من آباء ولدوا فيها، بعد أن ترك أجدادهم بلادهم، ولم يبق لهم أمل في العودة إليها، يجتهدون دائمًا أن يثبتوا أنهم من أصل تركي أو سورى أو عربى، ولا يكادون يعترفون - وخصوصاً أمام الآخرين - أنهم من أبناء البلاد التي يرتعون في خيراتها ويعيشون من تعيمها.

وبديهي أن المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر أحد على تبرئة نفسه من الانساب إليه، كما يدفع المتهم نسبة الجناية إليه عمه!<sup>(١)</sup>

وهذا الحس المصري الصادق الذي تميّز به قاسم أمين، لا تجد فيه شائبة تشير إلى أصله التركى - كما هو واضح من عباراته السالفة - بل إنه يؤكد أن التعلق «بالتركية والأتراك» هو محض وهم، لأن العناصر التركية التي استقرت بمصر قد ذبل دورها، وفقدت دورها المستقل في المجتمع، «فهذا الجنس قد انكمش الآن، أو ذاب في المصريين».<sup>(٢)</sup>

كما أن هذا الحس الوطني الصادق لم يجعله يتخد الموقف

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٢، ٢٢٤.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٥٨.

«التعصب» الذي يذكر مزاج الآخرين . . فهؤلئك لبعض الأوروبيين الذين حذروا مصر ، فضلهم كثيرون غيرها وخدمة مرافقتها ومشاركتها النساء والضفاء<sup>(١)</sup> .

ويذكر للأثر أن رغب مأساة احتلالهم تليلاً وظلمهم لأهلها . . ما استفاداته منهم «الآمة المصرية» فلقد «وجدت فيهم إنسانية راقية ، فاقتبس منه بالمعشرة والمصاهرة» النظافة . وترتيب المسكن ، والتغذى في الملبس والماكل ، وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الأدبية . .

ويلفت النظر إلى ظاهرة تفضيل المصريين الزوج من التركيات ، ويرجعه إلى نظافة المرأة التركية وذكائها وكفاءتها كزوجة<sup>(٢)</sup> .

وكما ووجه نقده لنفر من المصريين المتحدررين من أصول غير مصرية . . إلى نفر من الأوروبيين الذين كان همهم الأول «جمع الشروات في أسرع وقت ممكن والرhill بها بعد ذلك» عن مصر ، دون أن «تجتذبهم الحركات العلمية والأدبية» تراه كذلك قد تنبه للدور «الطفيلى» الذي قام به اليهود في استنزاف ثروة الوطن دون أن يضيقوا إليه انتاجاً يوازي ما يحصلونه من أرباح ، فيقولون عنهم : إن «اليهود يشكلون أكثر أجزاء السكان . (في مصر) - استفادة ، فهم - عدا استثناءات فلليلة - لا يتجهون شيئاً ، ويحيطون مع ذلك أرباحاً كثيرة»<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥٨ .

وهو بذلك يدرك وينبه إلى حقيقة أنهم إنما يهتمون بالكسب من المهن «الروبيطة» و«السمسرة» و«العميلات»، ولا يهتمون على المخاطرة بتوظيف آموالهم في مشاريع الاتساع.

\*\*\*

وبسبب من ذلك المفهوم الخديث الذي أعطاه قاسم أمين لفطح «الوطنية». . ولتحديده أن الوطن المصري قد تكونت لأهله خصائص المواطنة وعلاقتها في ظل النهضة الخديثة التي أقامتها تجربة محمد علي . . لكل ذلك كان تقييمه لهذه التجربة أمراً يستحق هنا إلقاء بعض الأضواء.

ويريد ذلك الأمر أهمية أن قاسم أمين هو واحد من مدرسة الإمام محمد عبد العزيز الفكري، ولقد كانت لمحمد عبد آراء في محمد علي وتجربته شوهدت الكثير من إيجابيات تلك التجربة، بسبب ذلك الصراع الذي قام بين الأستاذ الإمام وتياره الفكري وبين الخديوي عباس حلمي والأسرة الحاكمة. . ومع ذلك فإن قاسم أمين قد قيم تجربة محمد علي تقييماً إيجابياً، وكان منصفاً في عرض منجزاتها الوطنية كل الإنفاق.

فهو يرى فيها المرحلة التاريخية التي ظهر فيها «الوطن المصري الخديث» . . والنتائج الصالحة الذي أظهرها الطاقات الحضارية الكامنة للعنصر الوطني المصري . . ويرى في القسمة الاستبدادية وحكم الفرد الذي ظل يمارسه محمد علي السلبية الأساسية التي شابت روعة هذه التجربة الحضارية.

ثم هو يفرق ويفصل بين تجربة مصر في عهد محمد علي، وبين ما أصاب هذه التجربة، بعده، على يد خلفائه الذين فرطوا في الميراث الغنى الذي خلفه لهم مؤسس هذه التجربة. . وإن كان لا ينسى أن يذكر للخديو إسماعيل فضله على التعليم والترى والإنشاءات، وإنجازاته الشورية والدستورية، وهو الفضل والإيجازات التي غطتها التبذير وما جرها على مصر من ديون خلقت التكاد للأجنبي كي يطمع في احتلال البلاد.

كما استطرد قاسم أمين، في تقييمه تجربة مصر الخديوية، إلى الحديث عن الثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢م)، فرأى أنها - وهو الإصلاحي الراهن للثورة كطريق للتغيير - خطأ دفع إليه تعجل الأمة تحقيق الإصلاح لطول عهدها بالظلم والاستبداد<sup>(١)</sup>.

إنه ليكفي في الدلالة على الموقف الإيجابي، لقاسم أمين، في تقييم فترة تأسيس مصر الخديوية هذه أنه قد حكم بالإدانة على كل فترات تاريخها ما بين عصر ازدهارها زمان الحكم العربي الراهن، وهذا العصر الذي قام فيه حكم محمد علي. . وهو في كل ذلك يقول:

لقد استغلت مصر بواسطه وحوش ذات وجوه ادمعة من كل البلاد ومن كل الأنواع. . . في الفترة الحزينة الممتدة بين وضع مصر المتألق تحت حكم العرب وعصر النهضة الذي افتتحه محمد علي. . . لقد أخذت السلطة منذ أيام محمد علي تصبّع أكثر انتظاماً

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٧٣، ٢٧٤.

واعتدالاً، ففتحت المدارس، وانتظم التجنيد في الجيش، وأنشئت الأساطيل، وفتحت حياة جلدية أيام التجارة والصناعة والزراعة، وأخذت تتطور جميعاً، وحفرت القنوات، وعبدت الطرق، وفي كلمة واحدة: أقيمت حكومة حقيقة.

صحيح أن بعض أعمال العطف والابتزاز كانت ترتكب من اآخر، غير أن الناس كانوا سريعاً المغفرة لمحمد على، وكانت الإنجازات الضخمة التي يتحققها والتي يريد تحقيقها تغفر له هفواته الصغيرة، وكان ينظر إليه كواحد شديد القسوة، لا يدرك الفارق بين التأديب وإساءة المعاملة!

وخلال حكمه الطويل تهيأ المصريون لدراسة العلوم والفنون وحكم أنفسهم بأنفسهم وكانت التجربة في صالحهم وخيرهم. وقد أدهشوا العالم الذي ذهل وهو يراهم يحاربون بشجاعة ويتصرون<sup>(11)</sup>.

إن مصر قد أيقظها - بعطف - من نعاسها التغيل رجل عظيم من نصف قرن، وأذاقها رحى العلوم، فأخذت تمثله في نسوة، ومن يرمها وهي مقبلة على التعليم، وقد أخذت تلمع مستقبلها المشرق، وهي تتجه إليه في خطى وثيدة، ولكنها ثابتة وداعية<sup>(12)</sup>.

\* \* \*

(1) المصدر السابق، ج 1، ص ٣٧٣

(2) المصدر السابق، ج 1، ص ٣٣٨

هكذا امتناعات مشاعر قاسم أمين بالحب لمصر ، وطنه الوحيدة .  
وهكذا كان تقييمه للفترة التاريخية التي نشأ فيها «الوطن» المصري  
و«الوطنية» المصرية بمعناها الحديث . . ولعل في نصوصه  
الواضحة والخاصة التي قدمناها هنا ما ينفي أية شبكات يحاول  
البعض إلقاءها على هذا الجاتب من تفكيره .

## فى الوطنية

[إن التمدن الأوروبي يطا بقدمه جميع أنحاء المكونة، ويستولى على منابع الثروة فيها، بقوة العقل أو بالعنف.. وإذا صادف أمة متوجهة أبادها أو أجلاها عن ديارها.. وإذا صادف أمة كامتنا، لها نوع من المدنية ودين وشرائع وأخلاق، غاملها بالمعروف.. لكن لا يقضى زمان طويل حتى ترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على أهم آسماك الثروة.. ولا سبيل أمامنا للنجاة إلا أن نستعد لهذا القتال، مستجتمعين من القوة ما يساوى القوة التي تهاجمها.

إن أمام مصر عقبة رهيبة هي أوروبا.. لقد حاربناها طويلاً من أجل استعادة مكانتنا في العالم...].

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحداً من أبناء المدرسة السياسية التي تكوت من حول الإمام محمد عبده . . . يؤمن أبناؤها «بالإصلاح» طريقة للتقدم والتضور، ويرفضون «الثورة» ويعلقون الأمان على «الصفوة المستبررة» و«النخبة المختارة» وليس على «العامة والجماهير» . . . وهذه «الصفوة» عندهم معيارها «الاستمارة الفكرية»، وليس الوضع الطبقي والثروة الذاتية والجاه الموروث.

وفي ظل الاحتلال البريطاني لمصر، كانت هذه المدرسة تتعامل مع سلطاته كأمر واقع لا بد من يريده «الإصلاح» أن يتعامل معها ويدخل وإياها في علاقات . . . ويسبب من منهج «الإصلاح التدريجي» الذي اتبعته هذه المدرسة فإنها لم تطرح قضية «الجلاء الفوري» للمحتل عن البلاد كشعار لها، لأنها كانت تؤمن بأن «الصفوة» التي لا بد منها لتسليم السلطة من المحتل لم تكون بعد، ومن ثم كانت ترى أن «الجلاء الفوري» - حتى مع افتراض تحققه - سينقل السلطة الكاملة إلى الخديو - وهم ينادون حكمه وأسرته إلى حد ما - أو إلى الدولة العثمانية، وهم ضد عودة سلطانها إلى مصر، لأنهم يؤمنون بـ«وطنية مصرية» وـ«الذاتية المصرية المستقلة»، وببعضهم يؤمن «بالقومية» المصرية بالمعنى العصري والحديث .

ومن هنا ميلت هذه المدرسة، في السياسة، تياراً معتدلاً .

تهادن مع الاحتلال وتعامل معه، على أمل الاستفادة من الوسائل الحديثة والإصلاحات العصرية التي أراد المحتل، بتطبيقها، تحقيق مصالحه، على أمل الاستفادة من هذه الوسائل والإصلاحات في تكوين هذه «الصفوة» المستبررة، ومتاؤلة التيار الفكري المتخلف والمتمسك بفكرة العصور «المملوكية - العثمانية» في فهم الأدب والدين وتفسير ظواهر الحياة؛

أي أن هذه المدرسة السياسية المعتدلة قد تغيرت عن التيار الوطني الداعي إلى «الجلاء الفوري» وهو تيار مصطفى كمال (١٩٠٨م) وأخرب الوطني... وهو الذي كان أكثر شعبية وأقرب إلى «الثورية»، وأصدق في التعبير عن الموقف الوطني السليم... كما تغيرت كذلك عن فئة المسلمين للاحتلال، والبائسين من حصول مصر على الاستقلال، والمرتبطين بقوات الغزو وجهازه ارتباط التبعية والعمالة.

كان قاسم أمين واحداً من أبناء هذه المدرسة السياسية المعتدلة... وإن لم تكن السياسة، بمعناها الشائع، شفالة الأول والأهم.

وهو يحدد بنفسه أنه من فئة «المعتدلين» عند حدبه عن ضرورة قيام مجلس تشريعي ثابني حقيقي، فيقول: لقد «باتت كثرة من المصريين المعتدلين، وأنا واحد منهم» تطلب قيام هذا المجلس، ثم يضع تحفظ هذه المدرسة المعتدلة، فيقول: «غير أننا نود، بالطبع، نظاماً فيه الغلبة للمعرفة الراجحة، لا لكم العددى!»<sup>(١)</sup>.

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٤٦، ٣٤٥.

ولقد فرضت هذا «الاعتدال» على هذه المدرسة أن ترافقه أسلوب «الإثارة الشورية» الذي استخدمه مصطفى كامل في بعث الروح الوطنية وإذكائها في نفوس المصريين . . فكان محمد عبد يصف خطب مصطفى كامل بأنها «نوبات صرخة» . . كما نجد امتعاض قاسم أمين من كثرة الحديث عن «الوطنية»، ودخوله في كل شيء في البلاد، على حساب ذلك . . من وجيه نظره . . ليس ضرورياً لإثبات حبنا للوطن الأم، كما لم يكن ضرورياً لإثبات حب الوطن عند الآباء والأجداد . . فممن الذي ينكر على المصريين تقدمهم في الإحساس الوطني؟! عاشوا آباونا، وتعلموا، واشتغلوا بالصناعة والتجارة، وخدموا أمتهم، وفتحوا البلاد وحاربوا الأعداء، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون بخسنه بخيانة، أما الآن فما قرأت وفي أي مكان وجدت لا أسمع إلا: حب الوطن، والغيرة الوطنية، والتفاني في خدمة الوطن، والجريدة الوطنية، والمدرسة الوطنية وحزب الوطن، والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التي تشغل وتبيع وتربع لخدمة الوطن، صار حب الوطن ديناً جديداً، من اعتقاده ريح ومن بعد عنه خمر، صار كعصارة الطماطم يوضع في كل شيء ليكتبه ذو قاتحة يجعل تناوله سهلاً مقبولاً<sup>(1)</sup> .

ونحن نود أن نتبصر إلى أن «الخطأ» هذا الموقف «المعتدل» في السياسة وفي الوطنية، يجب ألا يختلط «بالخيانة» و«العمالة»

(1) المصدر السابق، جزء 1 ص 173، 174

للاستعمار، كما يحلو للبعض أن يحكم على مصلحي هذه المدرسة الفكرية التي انتهى إليها قاسم أمين . . فهناك من الأدلة على «زيف» هذا الاتهام الكثير والكثير<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت هذه الصفحات ليست بالمكان المناسب لتفصيل الموقف السياسي والوطني لهذه المدرسة، فإننا نهتم بأن نشير هنا إلى موقف قاسم أمين من النصراع الذي شهدته عصره بين مصر وبين الاستعمار .

لقد أدرك قاسم أمين، على نحو جيد، أن بين مصر وبين أوروبا حصاراً حضارياً، ومن ثم وطنياً، يضرب بجلوده في أعماق التاريخ، وحدد على نحو ناضج وحاسم، أن العقبة أمام تطور مصر، وبلغتها المكان الطبيعي الذي تأهلت له، هي أوروبا!!

«... إن أمام مصر عقبة رهيبة هي: أوروبا!!»

لقد أخذ تأثير أوروبا يتزايد في مصر منذ عهد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) حتى أصبح له في عصر إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) سيطرة حقيقية علينا، إذ باتت كل أفعالنا وفتاتنا خاضعة للأوامر الصادرة عن مجالس وزراء باريس ولندن وبرلين، وأصبحى وزراؤنا يمبلون مرة إلى اليمن، ومرة إلى اليسار، خاضعين دائمًا

(١) انظر الفصل الذي كتباه في التقديم «اللأعمال الخامدة للامام محمد عبد» تحت عنوان «الإصلاح... للثورة... للإصلاح»، ج ١ ج ٣٣ - ١٠٠، طبعة بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سنة ١٩٧٢.

لأوروبا . إن أوروبا استخدمت دائمًا هذه السيطرة ضد مصر . . ولقد آن الأوان لدرك أوروبا أن المصريين قد عانوا ولا يزالون يعانون بسببها ، وأن العدالة تتفرض عليها واجب إصلاح ما أفسدته . . وفي انتظار الوقت الذي تعرف فيه بخطأ سياستها الماضية . . أسجل : أن أوروبا كانت العقبة الوحيدة الكبيرة التي كنا نحاز بها من أجل استعادة مكاننا في العالم<sup>(١)</sup>

هذا عن أوروبا ، بشكل إجمالي وعام ، أما إنجلترا التي أصبحت المحتل الذي انفرد باستعمار مصر ، فإن قاسم أمين يقف منها موقف «النافع» لها لأن تأخذ بيد مصر ، وفاء «بالواجب» عليها ، ويعمل علىها «الأعمال» في أن تسعد في تطور مصر إلى الأمام ، ويثنى على ما تحقق في ظل احتلالها من «تقدّم» في عدد من الميادين . . ولكنها يستقر قومه إلى التهويض ، فمحذراً إياهم من ترك بلادهم تفرد بها فئات الاستغلال والاستغافل والنهب الاستعماري ، فهو «يأمل» في الإنجليز ، ولكنه يطلب «المشاركة» ، ويحدد أن فاتون «البقاء للأقوى والأصلح» هو الحكم في هذا الصراع بين المصريين وبين الاستعمار !

فهو يطلب «أن تحمل إنجلترا مسؤولية مستقبل مصر ، ما دامت تحمل مصيرها بين يديها» و«يأمل ألا يسمع «الأخلاق إنجلترا» بعودة «الفساد الدكتاتوري» مرة أخرى إلى البلاد» . ويرى أن مصر «قد بدأت تتقطّع بالفعل في طريق الحضارة»<sup>(٢)</sup> ، وأنه قد أصبحت

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٤ ، ٢٤٤ .

لديها «حكومة أمينة ومهيبة وذات مشاعر أبوية»<sup>(١)</sup> وأن مصر قد دخلت «عصر النظام والحرية»<sup>(٢)</sup>.. ويحدد أن كل هذه الإنجازات إنما هي من فعل الإنجليز، وأن الكثير منها قد تم في وجه معارضة التيار المحافظ والجامد المناصر للقديم، «فكيل ما وجد في مصر من الحرية والنظام والعدل، لم يوجد ولم يستمر إلا بعمل الأجنبي، وعلى رغم أهلها»<sup>(٣)</sup>.

ولكنه لا ينسى أن «يتحفظ» بعض التحفظ على ذلك الإسراف الذي يتجلّى في تقسيمه لدور الاستعمار في مصر، وهو الإسراف الذي يجافي الحقيقة، أو يعرض جانباً واحداً من جوانبها، فيتساءل قائلاً: لكن، «هل يعني هذا أن لدينا حكومة كاملة، وأن كل شيء على أحسن ما يرام؟».. (ونبه إلى أن الإجابة بنعم كانت موقف الفئة العبيدة والمستسلمة) - ثم يجيب: «... الحق، أن لا... فلا يزال أمامنا عمل كبير، ولا يزال علينا أن نعيد تنظيم إدارة الأقاليم التي بقيت مأوى لعقلية النظام القديم.. إنني أعدن حكومتي أيضاً، بال حاجة إلى تثليل وطني حقيقي، وإن يكن في صورة مبسطة!»<sup>(٤)</sup>.

وبالطبع، فنحن نؤمن بأن هذا الموقف «الوطني المعتدل» لم يكن هو أصح المواقف ولا أجدادها في ذلك التاريخ.. ولربما لا

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٢

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٩٥

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٠

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٥

نود أن نظل قاسماً أمين إذا تركنا القاريء يتصور أن أعماله في التقدم  
بعصر قد كانت معقودة فقط على إصلاحات الإنجلiz في إدارتها  
ومرافقتها، فلقد كانت أعمال الرجل معلقة أيضاً، بل وبالدرجة  
الأولى، على نهضة المصريين لدخول حلبة الصراع ضد الأجانب  
وانتزاع مواقعهم في بلادهم بجدارة، والاستهلال في سبيل الفوز  
في هذا الصراع، الذي حذرهم مغبة الإخفاق فيه... إنه يحدد  
جاذبي الصورة كما رأها يومئذ، أي جاذبيتها التي دخلت إلى الواقع  
المصري، والمخاطر المحدقة بأبناء البلاد وثرواتها ومصيرها...  
فيقول:

«إنتي لا أجد في ماضيها - مصر - عصرًا انتهى فيه  
ال المعارف، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية، وانت الأمن  
والنظام في أنحاء البلاد، وتهيأت الأسباب للتقدم، مثل العصر  
الذي نعيش فيه الآن».

«ولكنها، من جهة أخرى، لم تبر علىها زمن صارت فيه حياتها  
معرضة للخطر مثل ما هي في هذا الزمن، فإن تمدن الأمم الغربية  
يتقدم بسرعة البخار والكهرباء، حتى فاض من منبعه إلى جميع  
أنحاء المسكونة... وكلما دخل في مكان استولى على منابع الثروة  
فيه، من زراعة وصناعة وتجارة... وإن أضر بجميع من حوله من  
سكان البقاء الأصليين. فإنه إنما يسعى إلى السعادة... يطلبها أئم  
وجدها، وبأى طريقة يرى النجاح فيها، وهو في الغالب يستعمل  
قوة عقله، فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة على  
إليهما... وهو لا يطلب الفخار والمجد... بل المفحة... وتحصيل

الثروة من بلاد تحترى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الاتساع بها . . فإن صادفوا أمة متوجهة أبادوا أهلها وأهلكوهم ، أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل في أمريكا وأستراليا ، وكما هو حاصل الآن في إفريقيا . . وإن صادفوا أمة كأمرينا ، دخل فيها نوع من المدنية من قبيل ، ولها ماض ودين وشائع وأخلاق وعوائد فخرى من النظمات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف ، ولكن لا يرضى زمل طويل إلا وترى هؤلاء القادة من قده وضعوا أيديهم على آنهم أسباب الشروذ . . وكلما تقدموا في البلاد تأحر ساكنوها . هذا ما اسمه «داروين »: قانون التراحم في الحياة . . فلا سبيل للنجاة من الأخلاص الحال والفتاء إلا طريق واحدة لا مندوحة عندها ، وهي أن تستعد الأمة لهذا القتال ! وتأخذ له أهليتها ، وتنتجمع من القوة ما يساوى القوة التي تهاجمها من أى نوع كانت . . . (١)

فهذا موقف «وطني معتدل» ، إذ يبالغ في تقييم إنجازات الاستعمار الإنجليزي في مصر ، أو على الأقل يسلط الضوء أكثر من اللازم على بعض القسمات ، لا كل القسمات . . ولكن يمغفل أمثلة «القتال» دون ثرواتها وكنوزها التي هي الهدف الأول والأسمى في هذا الصراع الضاري والتاريخي بينها وبين الأوروبيين .

وهو لذلك ، أيضا ، يدعو إلى جعل «الإحساس الوطني» أحد

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٠ ، ٧٩

أسس ثلاثة لا بد أن يقوم عليها نظام «التربية» عندنا . . . و معه:  
الأساس الديني . . . والوازع النفسي وتنمية الفضمير<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وهناك حقيقة أخرى ، وأخيرة ، في «الموقف الوطني» لقاسم أمين ، تتعلق «بتطور» موقفه هذا في سنوات حياته الأخيرة . . . ذلك أنه ، مع آخرين من أبناء تلك المدرسة المعتدلة ، قد شعروا بأن الاستعمار يستفيد من موقفهم هذا أكثر مما يتبع لهم ولا يأبه لهم وأهدافهم الاستفادة من أسلوبه العنصري وبرامجه في الإصلاح . . . كما شعروا بأن عدداً من إصلاحاته التي كانوا قد استبشروا بها خيراً قد عادت وتعود نتائجها الإيجابية للاستعمار ، ولم يبق منها للوطن سوى جوانبها السلبية : فديون الأجانب ونفقات قوات الاحتلال وثروات التبغ والمغامرين والمستثمرين الأوروبيين قد التهمت أغلب عوائد إصلاحات الري والزراعة والرواج التجاري في البلاد . . . ولم يبق لأبناء الوطن إلا الفتات . . . وخلق فئة من الموظفين تخدم جهاز الدولة الجديد ، أصبح هو العائد الأساسي والشمرة المؤكدة لبرامجه التعليمي . . . ولم تحدث إضافة حقيقة لمعارف الأمة وقدرات أبنائها العقلية . . . بل لقد عاد الإمام محمد عبده ، في مرضه الأخير ، فأشنى على نظام التعليم الذي أقامه محمد على ، وفضلته على إصلاحات الإنجليز التعليمية بعد أن كان قد علق عليها الآمال<sup>(٢)</sup> .

(١) المصادر السابق ، حد اصري ٢١٥ ، ٢١٧ .

(٢) الأعمال لكتاباته للإمام محمد عبده ، دراسة وتحقيق المذكور محمد عصارة ، ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، وج ٢ ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

وهذا المنظور الذي يقول إنه قد حدث في «الموقف الوطني» لقاسم أمين، يتجلّى لنا إذا نحن تذكّرنا حديثه الذي سبق وأورّذناه، والذي اتّقد فيه النّمط الذي سلّكه مصطفى كامل في الدّعوة إلى الوطّنية. ثم قارنناه بالعبارات الرايّة والعميقّة التي سطّرها في مذكّراته عندها شيّفت مصر جثمان الرّعيل العظيم مصطفى كامل في ١١ فبراير سنة ١٩٠٨... وهي العبارات التي ينفُو فيها قاسم أمين:

١١ فبراير سنة ١٩٠٨م... يوم الاحتفال بجنازة «مصطفى كامل»، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق... المرة الأولى كانت يوم تفجّيذ حكم «التسوّاى»، لقد أخذ يومها سعور الناس... ولكنه بقي مكتوماً في النفوس... أما يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك ساطعاً في قبة جيّاله، وانفجر بفروقعة دائنة سمع دويها في العاصيّة، ووصل صداقه دويها إلى جميع أنحاء القطر.

هذا الإحساس الجديّد، هذا المولود الحديث، الذي خرج عن أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يتسنم في وجوهنا البارزة، هو الشّياع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل! (١).

لنجّن هنا نشعر أنّ قاسم أمين يباعي مصطفى كامل وملهبه في الوطّنية وسلكه في البعث الوطّني، وهو هنا يحسّن هذا

(١) الأعمال الكاملة لقاسم أمين، ج ١ ص ١٨٣

«الانهيار» الغاضب الهائل الذي جاء يبعث الدفء والحرارة في «القلوب الجامدة الباردة» التي نأى عن م الواقع الوطنية الشائدة ولتهيب حرارة الحركة الوطنية الجديدة.

وكم كانت خيبة الآمال في إصلاحات المستعمر سبباً في ذلك التطور . . فلقد كان من أسبابه - كما نعتقد - تغاظم التيار الوطني الذي قاده مصطفى كامل والحزب الوطني . . وأيضاً إخلاص هذا التيار من أبناء مدرسة الاعتدال الوطني لقصبة بلا دهم . . ذلك الإخلاص الذي دفعهم لتعظيم مواقفهم وتعادي ما يفعلونه عذراً لهم يحقق لهم «الاعتدال» ما أملوه خير الوطن ومحروه من الاستهانة .

## أعماله الفكرية

الأعمال الكاملة لقاسم أمين : التي جمعناها وحققناها وقدمنا لها بدراسة مستفيضة والتي قدمناها لقراء العربية ، سنة ١٩٧٦ م ، هي حلقة في تلك السلسلة التي بدأنا إخراجها منذ سنة ١٩٦٨ م . سلسلة «الأعمال الكاملة» لأعلام عصر اليقظة العربية والبحث الخصاري الحديث لأمتنا العربية وفكرنا الإسلامي المستنير .

وفي هذه السلسلة ، صدرت :

١- الأعمال الكاملة لحمان الدين الأفغاني : ونحن ستكمل الآن طبعتها الثانية ، كي تتضمن تلك النصوص التي اكتشفناها بعد صدور الطبعة الأولى ، وفي مقدمتها تلك النصوص التي كانت منسوبة ، خطأ ، للإمام محمد عبده . - وهي تصووص ستجعل طبعتها الجديدة تأتي في أربع مجلدات . بعد أن كانت طبعتها الأولى في مجلد واحد .

٢- الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي : ولقد صدرت طبعتها الثانية ، حاوية نصوصاً ووثائق لم تنشر للكواكبي من قبل ، وحاوية كذلك التعديلات والإضافات التي أدخلها على كتابه «طبع الاستبداد ومصارع الاستعباد» قبل وفاته ، ونعمل الآن

لإخراج طبعتها الثالثة حاوية مقالاته التي كانت مفقودة، والتي نشرت بالصحف التي أصدرها بشباهة في حلب.

٣- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: ولقد اكتمل صدورها بظهور جزئها السادس والأخير. ونفذت طبعتها الأولى والثانية. ويعاد الآن طبعها مع زيادات وتفصيحات.

٤- الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى: وصدرها يقترب الآن من الاكتمال، فلم يبق منها سوى الجزء الأخير، وفيه الفهارس وبعض المتفرقات.

٥- الأعمال الكاملة لعلى مبارك: ولقد صدرت المجلدات الثلاث الأولى.

فأعمال قاسم أمين، إذا، هي حلقة في هذه السلسلة، التي لرجو لها النحو كى تضع بين يدي مفكرينا وباحثينا وقراءنا الشمرات العقلية الفذة والبارزة التي صنعت عصر نهضتنا الحديث، والتي لا تزال فاعلة، ومؤثرة في حركتنا الفكرية حتى الآن.. وهو إنجاز يعلق على استمراره واكتماله أهمية كبيرة. لشدة حاجة حركتنا الفكرية إليه، وحتى لا تكون بدعاً بين الأمم المتحضرة والناهضة صاحبة التراث، حيث تهتم معظمها بجمع آثار مفكريها الكبار، وتحقيقها والتقديم لها، وتغيب عن دائرة اهتمامنا هذه المهمة الأساسية، رغم غناها الفكرى وشدة حاجتنا إلى وصول خيوط تطورنا الثقافى وتأصيل القيم الفكرية المشرقة فى واقعنا الثقافى الذى نعيش فيه.

وإذا كان لا بد من كلمات عن النصوص التي تكون «الأعمال الكاملة لقاسم أمين» فلما نقول: إن مفردات نصوص هذه الأعمال هي:

١- كلمات: وهي الخواطر والمحاجات التي كتبها قاسم أمين في «مذكراته الخاصة»، والتي كانت تثانية «مذكرات نفسية خاصة»... كتبها لنفسه، وأودعها خلاصة مركزة لمجموعة من أفكاره، صاغها في أسلوب جاءه غاية في الرشاقة والجمال.

وكان قاسم أمين قد قرأ أصفحات من هذه الـ «كلمات» الصديقه أحمد لطفي السيد باشا (١٨٧٢ - ١٩٦٣م) فلما توفي قاسم سعى لطفي السيد إلى الأسرة، ب بواسطة سعد زغبول باشا (١٨٦٠ - ١٩٢٧م) حتى حصل عليها، وقام براجعتها مع محمد عاطف برگات (١٨٦١ - ١٩٢٤م) ثم نشرتها جريدة لطفي السيد «الجريدة» سنة ١٩٠٨م.

\* \* \*

٢- أسباب ونتائج: وهي خمس عشرة مقالة نشرها قاسم أمين، دون توقيع، في صحيفة الشيخ على يوسف «المؤيد» ما بين سنة ١٨٩٥م وسنة ١٨٩٨م... مقدمة وأربع عشرة مقالة، عالج فيها عدداً من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتربيية التي تهم دعوة الإصلاح.

\* \* \*

٣- أخلاق ومواعظ: وهي مثل «أسباب ونتائج»، مقالات خمسة

كتبها في «المؤيد» في نفس الفترة الزمانية (١٨٩٥ - ١٨٩٨ م) دون توقيع، وقصرها على علاج مشاكل «الموظف والوظيفة والتتوظف» في عصر كان التسابق فيه على العمل «الميري» ظاهرة سلبية تحول بين خبرة الشباب وبين العمل المتبع، وتنبع في هذا الشباب أخلاقيات التواكل والارتزاق.

\*\*\*

٤ - المصريون.. رد على داركور: وهو الكتاب الذي أصدره بالفرنسية قاسم أمين سنة ١٨٩٤ م، ردًا على الكتاب الفرنسي «دوق داركور» الذي أصدر كتاباً عن مصر والمصريين سنة ١٨٩٣ م، امتلاك التهجم عليهم وحاول فيه الطعن على الإسلام والمسلمين.

ولقد قال قاسم أمين عن ملاميات كتابه لهذا الرد: «إنه حين قرأت كتاب دوق داركور مررت عشرة أيام، وقد قلت ذلك جمجمي أصدقائي، قبل أن يرد على خاطري فكرة الرد عليه. لقد وجدته يبالغ الفسدة، وأحزنني أنه حاول انتزاع جميع أمالى، غير أنه أخذت أسترد هدوئي شيئاً فشيئاً، وبعدها شرعت أطهار التفكير في كل ما كتبه عنا، وتأملت جميع المشاكل التي وضعها وحلها، وخلعت عنى ضئلي المزدوجة، كمصرى مسلم، لأحلل الموقف في حياد تمام ودون انفعال أو تحيز، ولم أسترشد بغير الرغبة في معرفة الحقيقة، حتى استطع أن أعبر هنا عن عواطفى كما يفعله أحبابى يعرف عن مصر كل ما أعرف، ويقيمهها بطريقة محاباة».

ولقد ظل هذا الكتاب الذي يمثل قصيدة متميزة في فكر قاسم

أمين ومرحلة في تطوره الفكري حيال بعض القضايا الهامة، ظل بعيداً عن اللغة العربية، حيس أصله الفرنسي، حتى تقدّيتا له في أعماله الكاملة.

ولقد كان ذلك سبباً من أسباب مجني، أغلب الدراسات التي كُتبت عن قاسم أمين غير وافية برسم ملامحه الفكرية المتكاملة، وبعيدة عن إدراك تطوره الفكري... وهم الأمران اللذان تحققهما، ضمن ما تحقق، الدراسة التي قدمناها عنه هنا.

أما إنجاز ترجمة هذا الكتاب فهو للصديق الأستاذ محمد البخاري... ولنا فيه التحقيقات والتعليقات والترجمة الموجزة لما ذكر في نصه من أسماء الأعلام.

\* \* \*

٥- تحرير المرأة: وهو أكثر كتب قاسم أمين شهرة وذوعناً... بل أشهر كتاب عربى صدر في عصره... صدر سنة ١٨٩٩ م. فأثار أول معركة فكرية كبرى، سببها كتاب منذ مطلع عصر نهضتنا في بداية القرن الماضي.

ولقد سبق لنا أن عرضنا، ونحن نقدم للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، إلى أن للأستاذ الإمام دوراً في تأليف هذا الكتاب، وقدمنا في ذلك المقام أدلةنا على أن رأى الشريع الإسلامي في قضايا: الحجاب، والزواج، والطلاق، وتعدد الزوجات، الذي تضمنه «تحرير المرأة» هو للأستاذ الإمام.

\* \* \*

٦- المرأة الجديدة: وهو الكتاب الذي أصدره قاسم أمين سنة ١٩٠٠م، وذكر فيه جهده للمرد على الاعتراضات التي قدمت، في الكتب والرسائل والصحف والمجلات والمنتديات، ضد كتابه «تحرير المرأة».. كما ضمنه تطويراً أكثر جرأة في عدد من الشخصيات التي تناولها في «تحرير المرأة» في توافق أو على استحياء.

\* \* \*

٧- إنشاء الجامعة: وهي كلمة لقاسم أمين خطبها في اجتماع من الاجتماعات التي عقدت سنة ١٩٠٨م للتحضير لإنشاء الجامعة المصرية.. عرض فيها لأهمية التعليم الجامعي ودوره في خلق العلماء والمفكرين والمتخصصين.

٨- الإمام محمد عبد العال: «الأخلاق وفضائله وإيمانه».. وهو خطاب قاسم أمين الذي ألقاه في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٥م باجتماع تأبين الأستاذ الإمام، في ذكرى مرور أربعين يوماً على وفاته، وفيه عرض ل مكانة الإمام، ودوره في الفكر العربي الإسلامي، والمدرسة الفكرية التي تكونت من حوله.

تلك هي مفردات الأعمال الكاملة لقاسم أمين.. وهي الأعمال التي جمعناها، وحققناها، وقدمنا بين يديها بدراسة مستفيضة عن حياته، وفكرة، ومكانة من حركتنا الفكرية في عصر نهضتنا الحديث.. ولقد صدرت طبعتها الأولى عن (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) بيروت سنة ١٩٧٦م.. وهو جهد نرجو أن يكون قد حالفنا فيه توفيق واهب التوفيق.

## كلمات

[دونها قاسم أمين في مذكراته الخامسة.  
فيجاءت آية من آيات الحواضر الصادفة مع  
النفس...]

ونعوذجاً راتباً للمذكريات التي يوحبيها  
القلب وتسكبها العاطفة..

وصورة من صور الشاعرية التي سطرها  
فليمه الرشيق...]

\*) الحرية

الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأي، ونشر كل مذهب،  
وترويج كل فكر.

\* \* \*

\* لا يغرنك المترنح السهل إذا كان المنحدر وعراً.  
\* إن الذي مدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك.  
\* ربُّ كلمة يتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها.

\* \* \*

\* إذا استشارتك خدوك فالخلص له النصيحة، لأنها بأسئراراتك  
قد تخرج من عداوتك ودخلت في فودتك.

\* \* \*

\* في مصر: كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلاً، فإذا  
درس شيئاً من العلم صار عالماً مفضلاً، فإذا امتاز ببعض  
الصدق أو إظهاره عُدَّ من النوابغ.

---

(١) العناوين الغرغغية التي وضعها لفقرات هذه «الكلمات» من إنشائنا نحن وليس  
من وضع قاسم أمين.

## \* الإيمان \*

ليس الإيمان مسألة عقلية أو علمية ، فإنما نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وإنما الإيمان مسألة شعور صرف ، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجاً إليه إلى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه .

\* \* \*

## \* بين العلم والدين \*

تعصب أهل الدين ، وغزو أهل العلم ، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم ، وليس ب الصحيح أنه يوجد بينهما خلاف حقيقي ، لا في الحال ولا في المستقبل ، ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء ، فمهما كثرت معارف الإنسان لا تغلا كل فكره ، بعد كل اكتشاف يتحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر ، وفي نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغداً يشتغل عقل الإنسان بالعلم ، أي بمعرفة الحوادث الثابتة ، ولا ينزع ذلك من التفكير في المجهول الذي يحيط بها من كل طرف ، هذا المجهول الذي كان ويكون بعد الذي لا قرار له ولا حد لا في الزمان ولا في المكان هو دافع اختصاص الدين .

## \* العشق \*

لا شيء يشبه العشق في عنتوان شانته ، إذا هجم هذا المستبد

القاهر ارتعدت له الفرائص وحضر اللسان واحتل العقل وخلأ  
الطريق أمامه ، فوصل إلى القلب بوابة واحدة أو بوابات متعددة ،  
ومتنى احتله متعدد فيه وانتشر وملأ برمته ، فلا يقبل متنافساً أو  
منازعاً أو شريكاً أو ضيقاً بجانبه ، بل يستأثر وحده بالنفس فيليها  
عن شواغلها ويسهلها حاجاتها ، ويفرق بينها وبين أميالها ،  
ويذهب همومها وأحزانها ، ولا يطمئن إلا إذا قطعت العلاقات  
مع غيره ، وأصبحت كلها له ، كأنها ولدت معه في يوم واحد ،  
وتغنى معه في ساعة واحدة ، لا تعرف ماضيها ولا تبالي  
بمستقبلها ، فإذا تذكر منها على هذه الحال وقبض على زمامها  
رضيت بعمرها ، وشكرته على أسرها ، واغتبطت برقها ،  
ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحاً وسعادة لم تر مثلها .

العاشق عنده ما يكفيه : سماوة صافية مهما تراكمت عليها  
السحب ، وصادته فاخرة وإن لم يكن عليها غير الخير والملح ،  
تنتابه الحوادث ولا تترك به أثراً ، لأنها لا يعبأ بها ، سارة أو ضارة ،  
ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة ؛ لأنها يشعر بأن في جسمه روحين وهي  
صلبة قلبين .

إن كان في الوجود إنسان يستحق أن يحسد على تعمنه فهو  
العاشق .

كل عشق شريف . فإن كان بين شريقيين زاد في قيمتهما ورفع من  
قدرهما ، وإن كان بين وضيعين أكباهما شرفاً وقيباً ، حتى إذا زال  
العشق سقطت قيمتهما ، وانحطت مرتباًهما ورجعاً إلى أصلهما .

\* \* \*

ليس ما يكتب على أبواب الأمكنة دائمًا صحيحةً، فقد يكون بين سكان البيمارستان من هو أعلم من هذا الذي تراه سائراً في الطريق متعملاً بحرفيته. كذلك بيوت المؤسسات قد تغلب أبوابها على نساء، فيهن من هي أوفر حشمة وأدباً وأكثر بعدها عن الشهوة من كثير من المخدرات اللاتي تتحملي الرعوس أمامهن.

يشعر العاشق بلذة ساحرة إذا كان محبوباً، وإذا كان عبراً محبوب فيجد في المثلثة أخرى مشابهة للسكر، من تسبه في الأعصاب وسرعة في دورة الدم وانفعالات شديدة في النفس، وبالإجمال من زيادة محسوسة في مبلغ الحياة، كلاعب القمار ينعم بارضاء شهوته في الربح أو في الخسارة.

\* \* \*

«من اختباري لأرباب الأفكار الذين اختطفت بهم بظاهر لى أن الخمية عندهم مسطحة لا تذكيرها نار لتوقد في القلب حمية الفاظ، متى انتشرت عادت هباء لا ترك أثراً بعدها.

### \* الكاتب \*

في الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق بخمهور القراء أكثر من عنایته بابداه فكره.

ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر أفكاره كما هي، ينشر الحقيقة متزهدة عن الزبادة والتفصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو ينمازل عن حرف، صراغة لأى أمر كان. . هو العاشق الذي يعتقد

الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شيء يعادله، ولا يبالي بذم الناس، بل يجد فيه نوعاً من حماسة الغضب، منها لاعصاه، منشطاً لقواه، مغرياً له على الاستمرار والثبات.

\* \* \*

«كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامي صورة امرأة حاتمة بجمال المرأة وعقل الرجل».

\* \* \*

بعد سن الأربعين يتدنى العاقل يرى أن المطلق ليس له وجود ذاتي، وأن الثروات الجميلة التي تحبها وتقدمها كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد في الخارج إلا مختلطة بنيّضاتها.

### \* الخطية \*

لا بد أن تكون الغاية النهائية للتربيّة الأدبية هي العفو عن الخطية: العفو عن أكبر خطية، العفو عن كل خطية.

هل المخطئ مسؤول أو غير مسؤول؟ وما هي درجة مسؤوليته؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحفلها، لكن حلها يكاد يكون محالاً، إذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التي تتركب منها الذات الإنسانية بوجوبها: الأدبي، والمادي، والقليل الذي يعلمه من ذلك يبين أن سلطنة الإرادة على النفس محدودة وخاصصة لمؤثرات كثيرة شديدة، تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى

تقديره عقلنا، وكل تاريخ الإنسان في الماضي يدل على أنَّه لم يكن متولداً عن الحيوان المفترس مباشرةً، فهو مشابه له في شرط وأضياعه وشهواته، خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم، حتى على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضها مؤقتاً.

فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه، هي الحال الطبيعية الملزمة لغريزة الإنسان، هي الميراث الذي تركه آدم وحواء لأولادهما التعباء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة وذاقا ثمرتها التي يتخيل إلى أنها كانت الدمن كل ما أتيح لها، من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبعتهما، وانتقلت منهما إلى ذريتهما جيلاً بعد جيل، ذلك هو الحمل الثقيل الذي تزن تحته أرواحنا الملتيمة شوقاً إلى الفضيلة العاجزة عن الحصول على السير منها إلا بمقاسة أصعب المجهودات، حتى هذا التزr القليل لا سبيل إلى بلوغه إلا بتمرين طويل، يتخلله حتماً سقوط متكرر في الخطيئة، يكون منه الدرس المقيد لاتقاده في المستقبل.

وأخيراً، فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تدفع لاصلاح المذنب، فقلما ترجد طبيعة سبها كانت يابسة لا يمكن أن تلين إذا هي عوجلت.

\* \* \*

«أمر لا تدرى متى يغشاك، لا ينبعك ماء من أن تستعد له قبل أن يفاجئك».

نحن خلفاء العرب في لغتهم، فكل ما تختار به ملكاتنا في  
اللغة يعد غريباً بالطبع.

\* \* \*

لم أر بين جميع من عرفتهم شخصياً الذي يقرأ كل ما يقع تحت  
نظره من غير خن، أليس هذا برهاناً كافياً على وجوب إصلاح  
اللغة العربية؟

لني رأى في الأعرايب أذكوه هنا بوجه الإجمال، وهو أن تتعنى  
أو آخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأي عامل من العوامل، بهذه  
الطريقة، وهي طريقة جميع اللغات الإفرنجية، واللغة التركية  
أيضاً، يمكن حذف قواعد التواصب والجوازات والحال  
والاشتغال... الخ، بدون أن يتربّط عليه إخلال باللغة، إذ تبقى  
مفرداتها كما هي.

في اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم، أما في اللغة العربية  
فيانه يفهم ليقرأ، فإذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف  
الثلاثة «ع ل م» يمكنه أن يقرأها علم<sup>(١)</sup> أو علم<sup>(٢)</sup> أو علم<sup>(٣)</sup> أو  
علم<sup>(٤)</sup> أو علم<sup>(٥)</sup> أو علم<sup>(٦)</sup> ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه  
الطرق إلا بعد أن يفهم معنى الجملة، فهي التي تعين على النطق  
الصحيح، لذلك كانت القراءة عندها من أصعب الفنون.

(١) بفتح العين وكسر اللام.

(٢) بضم العين وكسر اللام.

(٣) بكسر العين وسكون اللام.

(٤) بفتح العين واللام.

(٥) بفتح العين واللام المضمة.

(٦) بضم العين وكسر اللام المضمة.

كان المؤلفون في القرون الوسطى هم: ابن سينا<sup>(١)</sup> وابن رشد<sup>(٢)</sup> وابن مسكويه<sup>(٣)</sup> وأخرين، كانت اللغة العربية لغة الأدب والعلم والفلسفة، لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم، ثم مرت عليها القرون المطوية وهي واقفة في مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام، واللغات الأوروبيةأخذت تحول وترتقى كلما تقدم أهلها في الأدب والعلوم، حتى أصبحت النموذج المطلوب في السهولة والإيضاح والدقّة والحركة والرشاقة - صارت أنفسى جوهرة في ناج التمدن الحديث.

رغمما عن هذا قد أجمع قومنا على أن لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الأول، ويرعمنا أنها سيدة اللغات، كما أجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا.

## \* الابتكار \*

الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم فيما يكتبون، وإنما في عملهم مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة

(١) أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٦ م) فيلسوف وطبيب شهير في التراث الإسلامي، لقب بالشيخ الرئيس. وهو صاحب فزانة إشرافية في الفلسفة.

(٢) أبو الوليد بن أحمد بن رشد (١١٩٨ - ١١٢٦ م) فيلسوف فرنسي، الشارح الأكبر لآثار أرسطو، وأبرز فلاسفة اليمان المسلمين.

(٣) أبو علي الحازن (الشوفى) سنة ١٠٣١ م فيلسوف وأديب ومتزوج وعازم بالكتابات، ولد في الأخلاق كتاب «بديب الأخلاق» وفى التاريخ « التجارب والأمثال» وغيرهما كثیر.

والسماع، ومستودعات لأفكار غيرهم، يتعاملون بهذه البضاعة التي ليست لهم، ولا يضيقون أو يعلقون عليها شيئاً من أنفسهم. كل عملهم محصور في تكرار أفكار الغير التي حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن، فإذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا ومدحوا وصاحوا! فلان ما أحلاه! علان ليس في العالم مثله!

### \* طلب الحقيقة لذاتها

طلب العلم عندنا وسيلة لزواله صناعة أو للاستحقاق بوضيفة، أي لكسب المال، أما حب الحقيقة والاستغراق في تحصيلها والشوق إلى اكتشاف المجهول ومحالبة الصعوبة والاهتمام بترقية النفس، وبالإجمال التعليم لتعلم فلا فائدة فيه، والفائدة كي الفائدة في هذا الذي لا فائدة فيه.

### \* صحافتنا

إذا قرأت الجرائد تجدها جمِيعاً متحدة في موضوعها متشابهة في تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين إحداها والأخرى، وإذا اجتمعت في اليوم بعشرين رجلاً من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول، ولا تجد في الجريدة التي تقرأها أو تسمع من الصاحب الذي تقابله فكرة غريبة أو تعبيراً جديداً أو أسلوباً مبتكراً، لا تجد الناشر الذي يدهشك ويحذبك بمحاجات حنونه.

\* تُوجَدُ عَدَة طُرُقٌ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ كُلِّ فِكْرَةٍ، أَحْسَنَهَا طَرِيقَةُ  
وَاحِدَةٍ... هِيَ الَّتِي يَجْدُهَا الْكَاتِبُ الْمُجِيدُ.

### \* حدود الإنسان

عقل الإنسان المحدود لا يسع غير المحدود، وعلمه القليل لا يصل إلى إدراك المجهول الذي لا نهاية له، لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل في عالم الظلام وسار على الأعمى يتخبط بيناً وشمالاً، لا فرق في ذلك بين الغبي الجاهل والذكي العالِم.

\* \* \*

المقلد في إيمانه متضرر، يحمل عقیدته كما تحمل الوردة في عروة الملابس، والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم، وأبعض مهمنا من يخداع بدینه فيقول: إنَّ كَانَ اللَّهُ غَيْرَ مُوْجُودٍ مَا خَسِبَتْ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِي وَإِنْ كَانَ مُوْجُودًا رَبِحْتَ مَعَ الرَّابِحِينَ، لذلك أو من به! هذا هو المحتال الذي لا يصان أحد - حتى الإله - من نصبه.

### \* الأخلاق

الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان في جميع أدوار حياته، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم، يكون آمناً من السقوط يوماً في الرذيلة، كما لا يوجد رجل، مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتي يوماً بأفضل الأعمال.

وحقيقة الأمر أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً يتم دفعه واحدة، ون sis لها أحد توقف عنده، إنما هي في تحليل وتركيب، في تكوين مستمر، يعرinya الاتحـالـل زـمنـاً وـتـعـودـ بـعـدهـ إـلـىـ التـمـاسـكـ.

الإنسان أسير الشهوات ما دام حياً، وإنما تختلف شهواته باختلاف سنّه، فشهوة اللعب عند الطفل، وشهوة الحب عند الشاب، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين، وشهوة السلطة عند شيخ الستين، جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا، متى وقع فيها أحدها يجب عليه إلا يترك نفسه إلى تصرّفها، ولا يستصعب الحال من منها، ولا يأس من نفسه، بل عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض عملته، عليه أن يوجه إرادته إلى مصارعتها والتغلب عليها، عليه أن يحول فكره عن الأمس الذي كان فيه قبيحاً ويتضرر إلى غدّه الذي يكون فيه جميلاً.

لا يطلب الكمال من المرأة، وإنما يطلب منه أن يكون في كي يوم أحسن منه في اليوم الذي مضى.

في ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل الذي حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويزعم ما مدافعاً، كذلك الحال في جهاد النفس لا تجده ثبات الجذان إلا عند الرجل الذي عرض نفسه إلى استهواه الشهوات وخداع اللذات، فإذا اخترها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه التي هي الفضيلة الحقيقة، خلافاً للرجل الذي احتجب عن جواذب الشهوات، فإنه متى وجد أمام فرصة مرغبة فيها لا

يقاوم سلطانها إلا قليلاً، وإذا سلم في نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها.

\* \* \*

\* بعد سن الأربعين كل زلة خطيرة.

\* عين الطماع حينما تبصر شيئاً تشتته، لها نظرة تحيط به وتحويه برمته وتحوزه وتفعل في نفسك ما يفعله الاختطاف الحقيقي. هذه النظرة رأيتها كثيراً عند المعتاد لعب القمار.

\* \* \*

\* يوجد أناس متى رأيتمهم أو سمعتمهم تشعر بنقص في خلقهم لأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الاتزان المعهود.

\* \* \*

\* لا تكمل أخلاق المرأة إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمهم أيام.

### \* أصحاب التفوس الكبار \*

زارني أشهر أديب يكتب الآن في مصر باللغة العربية، وكان في يدي كتاب فرنسي، يشتمل على حكم ومواعظ موضوعة في جمل مستقلة لا ارتباط بينها، فقرأني فيه عبارة بهذه ترجمتها: «إني أخشى ما ألمني»، فقال: كيف يخشى الإنسان الشيء الذي

يسمى، فما يجده: كل إنسان يخشى ما يكره، وليس كل إنسان يخشى ما يقمنى، وإنما هذه صفة يختص بها ذوق النفور الممتازة، وتكون سبباً لشقاوئهم، يرى الواحد منهم وردة جميلة في البستان، فيتمنى أن يقف لها، ولكن يبعد عنها ما حولها من الشوك، يشتته تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع ورائحتها الزكية، ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التي ربما تصادف أسنانه وقت آذى بعض عليها، فيلقيها عن الأرض وهو يشتتها، يلاقى المرأة التي كان يراها في مخيلته مثال الجمال، فيعود أن يلقي نفسه تحت أقدامها ويعطيها قلبه وحبه، ولكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها، يتعمنى صدقاً ويخشى أن يجده خاناً... يسمى... كل شيء، ويخشى ألا يجد فيه كل ما تخيله. وهكذا يتضى حياته بين الأمل والخوف من تتحققه، وتنتهي به الحال إلى أن يرى أن السلامة في ترك الأمانى.

\* \* \*

\* كـ مباحثة مفيدة، إذا كان الغرض منها إظهار الحقيقة، ولكنك لا تجد إلا شخصاً يريد أن يعلمك ما ليس له به من علم ولا يصغي إلى شيء مما تقوله؛ لأنه ليس مشغلاً إلا بما يقوله.

\* \* \*

## \* الوحدة \*

ووجدت السامة غالباً في الاجتماعات، وما شعرت بها في الوحدة، أشواق إلى الناس فإذا احتللت بهم رأيت وسمعت ما

يزهدتني فيهم، فلأثير نفسي وأرجع مشجعاً إلى نفسي، فأجد فيها  
الراحة والسكون.

### \*الصديق والعدو

من الذي يحب صاحبه أو قريبه أو مراحته أكثر؟ أهؤ الذي  
يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هي... أم الذي يغدر  
ببصر عن نعائمه ويختفيها عليه ويمدحه لبسه؟ لا شك أن الأول  
هو الصديق المكره والثاني هو العدو المحبوب.

### \*الرياء

من الناس من إذا أراد أن يفعل الخير انتهز الوقت المناسب  
لإعلانه، فإذا رأى شهوداً وضع يده في جيبه وأخرج كيسه وعده  
المقدور ووضعها بيضاء في بد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون،  
ولكيلاً يبقى عندهم شك في مقدارها يقول من تفضل بمساعدته:  
خذ هذه الجنيهات العشرة، فإذا خرج هذا المسكين التفت إلى من  
حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتباذه عمل البر، ثم كلما  
اجتمع في نهاره بواحد من معارقه، أوجد ملائكة ليقص عليه خبر  
هذا الحادث العظيم. هذا الرجل أراد فعل الخير لنفسه فاستعمل  
صاحب الحاجة وسيلة لذلك.

ومنهم من يريد فعل الخبر فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه  
ويصفعه إلى شكره ويشركه في الله، ويحزن لحزنه ثم يبذل له من  
عبارات التسلية وكنمات النصح ما يقوى عزيمته، فإذا فقدم إليه

مساعدة مادية دسها في وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب  
خجل خائف أن يجرح إحساساً شريقاً، يحتال في انتخاب طرق  
العرض ويعتذر عن عمله، فإذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع  
في ورطة ثم تخلص منها، ذلك هو المحسن الذي يعرف أن  
للتفسير حياء يجب احترامه كما أن في الجسم ما ينبغي غض النظر  
عنه.

فعل الخير حسن وأحسن منه سترة .

### \* التجارب

أقل مراتب العلم ما تعلمه الإنسان من الكتب والأمساكة،  
وأعظمها ما تعلمه بتجارب الشخصية في الأشياء والناس .  
في الأمة الضعيفة المستعبدة حرف التقى (لا) قليل الاستعمال .

### \* العقوبة في التربية

من مروري في المدارس والمكاتب أحفظ تذكاراً ثابتاً - لا يزول  
أبداً - وهو الخوف من الضرب في الكتاب ضرب بالعصى على  
الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أي مكان آخر من الجسم . وفي  
المدارس بالنسبة المزففة والفلقة ضرب يبقى أثراً مدة أيام، كنت  
أذهب إلى محل التعليم مصحوباً باضطراب في العقل وخفقان في  
القلب وارتعاش في الجسم، وبعكس ذلك أرى الآن الأطفال  
يذهبون إلى المدارس راضين مسرورين - نتيجة من الضرب فيها  
ودخول الألعاب الرياضية .

## «الحرية»

الحرية الحقيقة تحتمل إبداء كل رأى ونشر كل مذهب وترويج كل فكر.

في البلاد الحرة قد يجاهم الإنسان بأن لا وطن له، ويُكفر بالله ورسله، ويُطعن على شرائع قومه وأدابهم وعاداتهم، ويُهرا بالمبادئ التي تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية. يقول ويكتب ما شاء في ذلك ولا يفكّر أحد. ولو كان من المخصوصة في الرأى، أن يتعرض شيئاً في احترامه لشخصه مني كذا قوله صادرًا عن نية حسنة واعتقاد صحيح. كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية؟

## «العيقريّة»

يظهر لي أن الارتقاء في الإنسان تابع على الخصوص بجهازه العصبي، فما أكثر الناس استعداداً للرقي هي العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية ببلغاً عظيماً، وتهتز أعصابهم المتوقرة بجلاسة الحوادث، فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة، أو تلك هم السعداء التمساء الذين يتمتعون ويتملون، أو تلك هم السباقون في ميدان الحياة، تراهم في الصف الأول مخاطرين بأنفسهم، يتنافسون فيما بينهم في مصادمة كل صعوبة، من بينهم تختب القدرة الحكيمية خيرهم وتوحى إلينه أسرارها، فيصير شاعراً بليغاً أو ولباً طاهراً أو فيلسوفاً حكيمًا أو نبياً كريماً.

## \* الفنون الجميلة \*

لعل أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة: التمثيل والتصوير والموسيقى، هذه الفنون ترمي جميعها، على اختلاف موضوعها، إلى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الجمال والكمال، فاهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور.

\* \* \*

دخلنا قصر المؤفر، وكنا أربعة من المصريين، لستع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أغااظم الرجال في العالم، فبعد أن نجحنا في غرفتين، جلس أحدنا على أحد الكراسي فائللا: أنا أكثفني بمارأيت، وهذا أنا منتظركم هنا. وقال الثاني: أتبعكم لأنني أحب المشي، وأعتبر هذه الزيارة رياضة جسمى، وسار معنا شخصاً أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار، وعما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والخليل، وحيثند تباهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاح: (هذا ألطى ما في هذه الديار)! وصلنا إلى تمثال آلهة الجمال الفريدة في العالم أجمع، فسألت دليلاً: ميّا تساوى هذه الصورة إذا عرضت للبيع؟ فقال: إنها تساوى ثروة أغنى رجل في العالم، تساوى كل مماليكه الإنسان، تساوى ما يقدرها لها حائزها ويطلبها ثمناً لها إذا لا حد لقيمتها.

## \* الأتراء \*

مهما كان الرأى فى حكم الأتراء لمصر، فلا دينى عندي أن الأمة المصرية استفادت منهم كثيراً، وجدت فىهم إنسانية راقية فاقبست منهم بالمعاهدة والمصاورة النظافة وترتيب المسكن والتغذى فى الملبس والماكيل وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الأدبية.

وإذا كان التعليم قرب ما بين الرجال من المسافة، فهى لا تزال إلى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية، حتى إنك لترى الرجال المهدىين يتهاقون على طلب الزواج بالأولى بقدر ابعادهم عن الثانية. واليوم وجد المصريون والأتراء أمامهم إنسانية أرقى، اختلطت بهم اختلاطاً كبيراً، فأخذوا يقلدون الأوروبيين فى جميع شئون حياتهم، ولا أرى أن هذا التقليد سيكون له أثر حميد فى إنقاذ أمتنا فى الحال الذى هي فيها الآن.

## \* الرأى العام \*

إذا رأيت الرأى العام يرمى أحد رجال الحكومة بالخيانة، ساخطاً عليه، شديدة الرغبة فى سقوطه، فاعلم أنه غالباً رجل ظاهر وعامل نافع.

وإذا رأيت الرأى العام معادياً للكاتب، وأعد له خصوصاً يتسبكون إلى نقض أفكاره ونفي مذهبته، وعلى الخصوص إذا رأينهم ذهبوا فى مطاعنهم إلى السب والقذف، فتحقق أنه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق.

## ما هو الرأى العام؟

أليس هو في كثيرون الأحوال هذا الحصہور الأبله، عدو  
الشغف، خادم الباطل، ومعين الظالم!

لُو انتظِرِ المصلحونِ دائِمًا، رِضَاءُ الرأى العامِ لِمَا تغييرِ العالمِ عَمَّا  
كَانَ عَلَيْهِ مِنْ زَمْنِ آدَمَ وَحَوَاءَ.

## ﴿اللذة ومضة لا تكرر﴾

صنف انطعام الذي أتعجبك، أو قطعة الغناء التي أطربتك، أو  
ليلة الأنس التي راقتك مع هبوبتك، أو غروب الشمس البداع  
الذي خفت لأجله قلبك، إذا قصدت تكراره فلنك لا تستطيع أن  
تجد السرور الذي شعرت به لأول مرة، فلا تهاول أن تزال ذلك في  
إعادته.

## ﴿الجبان المدعى﴾

قبيل الغروب وقف بناءً على بờ النيل «الذى كان يحمل بجانب  
غيط مزروع، وكان يستغل فيه رجلان، لمح أحدهما ثعبانًا غليظاً  
قصيراً، ففر وهو يصبح (ثعبان، ثعبان، ثعبان)،

أما الآخر فتقدما إليه حاملاً فأسه وضربه بها عدة ضربات حتى  
قضى عليه، ثم تركه في مكانه، وأخذ سلاحه وعاد إلى عمله،  
ولم يتكلم في أثناء ذلك بكلمة، وحيثما تحرك زميله ومشي  
محترساً على أطراف قدميه شاحضاً إلى الحبران، واقترب منه  
بطيئاً بطيئاً، ولما وصل إليه نسأه بطرف الفأس الذي كانت في يده

وقلبه مرة ثم مرة أخرى حتى إذا تحقق أنه مات صاح (يا ابن الكلب!) وطعنه بالفأس طعنة قوية.

وما رأى الشعبان لا يتحرك أمسكه عن ذنبه وصعد به إلى الجسر، وكان في هذه الساعة عامراً بالماردة، فاستوقف الأطفال والنساء والرجال، وصار يقص الواقع عليهم فاتلاً: (هجم علينا فقتلناه) وفي آخر الرواية يلقى الشعبان على هذا الجمجمة فيفرقهم وتصبح النساء ويهرب الأطفال، فيوضح هذا البطل الباسل من هذا الجم، وما زال كذلك حتى جاء الظلام فانصرقوا جميعاً، وهو في مقدمتهم حاملاً فريسته، أليس هو الحال دائمًا في جميع مظاهر الحياة الدنيا: قرفع من رجال العمل عن حب الفنون، وجرأة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتتحقق بها!

### \* سحر الطبيعة \*

يفعل الكلام المطبوع في نفس الجاهم فعل السحر، فيستولي على عقله، فإذا روى عن كتاب قال لنفي كل شبهة: هذا مذوب في الكتاب، وإذا نقل عن جريدة قال: هذا مذكور في الجرنا.

فإذا اعترضت عليه بأن الخبر يحتمل الصدق وأن الخطأ جائز على صاحب الكتاب أو الجرنا، أجابك: نعم، ولكن لا بد أن يكون الكاتب تحرى عن الحقيقة قبل النشر، لأن صناعته تقضى عليه بذلك.

\* \* \*

\* توجد كلمات أصلها الكتاب بعضها بعض من قرون طويلة، فحيث تكون إحداها تكون الأخرى، حتى ملت طول العشرة: كالعالم العلامة، والخسيب النسب، والصديق الحميم، والسبدة المضونة، فلما طلاق برد إليها حرية الاقتراض بكلمات أخرى، وإنما على الأقل حينئذ مفرقة تستريح في أثنائها من هذه الشركة القهقرية.

\* \* \*

### \* الذوق \*

من أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم. الذوق السليم هو هذا الإحساس الفطري الذي ينمي ويهذب بالتربيه، هو الشعاع اللطيف الذي يهدى صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويتجنب ما لا يناسبه. وعكسه هو الذوق المصطلح عليه بين جماعة النظرفاء عندنا، هم على يقين من أن الذوق لم يخرج من مصر.

يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية، والعاقل يكتفى بما يراه حوله ويسمعه، يتبرأ مجاناً على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين.

### \* صداقه \*

كان خمسة من أرباب المعاشات: خمسة شيوخ، فروا على

فروع الإدارة المصرية القديمة وتقلبوها في مناصبها العالية من مديرية إلى مجلس الأحكام إلى ديوان الأوقاف إلى السكك الحديدية. اختاروا بيت أحد هم، أكبرهم رتبة، وصاروا يجتمعون فيه في الصبح إلى الظهر، ومن العصر إلى بعد الغروب، جالسين على الكراسي في بستان عتيق مهمل، ولكته واسع الأرجاء، تطاول أشجاره السماء، هواء معطر بروائح الزهور، لا يصل إليه شيء، من ضوضاء الطريق، ولا يسمع فيه غير تغريد الطيور، لماذا كانوا يقولون ويفعلون؟ كانوا يقضون الأيام الباقية من عمرهم مؤمنين بهذا الاجتماع، مكتفين به لسد فراغ حياتهم، وفي بعض الأحيان يلعنون الشدة، فيتقدم منهم اثنان إلى ميدان المبارزة، ويلتقيا حولهما الباقيون لتجربة، وإذا ذلك ترتفع أصواتهم - شيئاً يذكر - برج جهار - خانة - اقرب - ويتناقضون بحدة، هذا يصح لأنه غالب والأخر يغضب لأنه مغلوب، فإذا انتهوا من اللعب أخذوا ينحدرون ويدركون ماضي حياتهم وسيرتهم في أعمالهم بالتفصيل والتدقيق في تواريخ السنين والشهور، ويخرجون من أعماق حافظتهم الأمينة حوادث مهمة وواقع غريبة، رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين، يررونها ويكروزنها عرات كلما عرضت لذلك مناسبة، ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الإدارة الحديثة واستهزاء برجال الحكومة الحالية وملامح قطارات على فساد أخلاق هذا الجيل وعلى احتلال الأمن وضياع احترام الصغير للكبير والوضيع للرقيق والمحكوم للحاكم، وذلك بعبارات وألفاظ هادئة مجردة من حدة الشهوات والتأثير، سوى نوع من التألم كان يبدو أثراً أحباناً على وجوههم، وهناك

موضوع كان يتردد في غالب الأحيان في حديثهم، هو تقدير من كل واحد منهم، متى طرقوه جرهم إلى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طويلة وخلط في الأرقام والواقع وعوج في الرأي وإباء للحق ومحالطات ظاهرة. كانوا هم أنفسهم أول من يضحك منها بصوت عالٍ ضخم، يسمع دويه من مسافة بعيدة، ومهما بلغ جهدهم في الفحص والأخذ والرد فقد بقيت هذه المسألة خامضة، وظل كل منهم حافظاً لمركزه متمسكاً بزعمه. وفي يوم حضروا كعادتهم إلى بيت زميلهم فوجدوه قد مات في الليل، فقلوا لمركز اجتماعهم في اليوم التالي إلى بيت أحد هم، واستمروا هم الأربعة على حالهم المعهودة، ولكن نقوسهم كانت تشعر دائماً ببعض الحزن، كأن روح فقيدهم كانت تطوف حولهم وتشكوا إليهم انفرادها، وتدعوهم إلى الانضمام إليها، فلبي ثلاثة منهم هذا النداء المستمر، وماتوا واحداً بعد الآخر في مدة قصيرة، وبقى خامسهم إلى الآن منفرداً كثيراً لا يتكلم ولا يخرج من بيته، لا يدرى ماذا يصنع ب حياته، ويرقب الموت الذي يخلصه منها.

### \*ليس فقدَ

أترى حسبي بك؟

- لا -

رجل خفيف ولطيف لا تخيب البشاشة عن وجهه، ولم يره أحد قط غير مبتسם. إذا قال لك: تهارك سعيد، ضحكت، وإذا أخبرته أن الهواء طيب، ضحكت، وإذا سمع أن زيداً مات

ضحك ، زينة المجالس ، وأنيس النوادي ، يرى نفسه مكلفاً بوجلبة السرور فيها ومنوطاً بنشر التفريح حوله ، يستخدم كل شيء ، لتسليه نفسه وأصحابه فيجد في أهم أخواته موضوعاً للتنكية ، وفي أحسن الرجال محلأً للسخرية . لو ضحكت حباتك في أشرف الأعمال لا بد أن يفتش فيها عن الجهة التي يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس .

بين هذا الهدبان القبيح والانتقاد الهزلي الصحيح فرق عظيم ، الانتقاد الهزلي الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر إلى موضع العيوب في الإنسان وجهات الضعف في أخواته فيبتسم بسكون ولطف ، وإذا علا صوته للضحك فليس لأن الضحك غايتها بل بعده وسبنته لفت النظر إلى شيء يحزنه وأمر ينكيه .

غرضه الإصلاح ، فيجاهد فيه بالطريقة التي يراها مناسبة لاستعداده الطبيعي . لا يحقر إحساناً شريفاً ولا يصغر عملاً كبيراً ، وإنما يحارب الرذائل والذناب ، ويتحقق بها أخف ما يمكن من الضرر ، في هذا الأسلوب ثبع عده كبير من الكتاب والشعراء والقصاصيين في أوروبا ، وعدها من أعظم رجال الأدب والفلسفة .

## \* تحايل \*

أخبرني موظف في الأزهر ، لا يخفى عليه شيء من أسرار الطلبة ، أنه كلما أراد واحد من فساد أخلاقه منهم أن يسبر

وراء شهوة ذهب إلى أحد البيوت العمومية وعقد على امرأة بحضور شاهدين على مهر خمسة قروش أو ما يقرب من ذلك، فإذا قضى شهونه طلقها وخرج معتقداً أنه بريء من كل ذنب.

\* \* \*

寒 雪 集

«الأخلاق الجديدة عند الشبان»: علمت أن بعضهم يحمل قوائم تشمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتي يرشحون أنفسهم لخطبتهن، وعلى الخصوص على حاليهن المالية وحال بيئتهن، فيرصدون فيها ما تملكه من الأطباق والأماكن وقيمة ما تساويه ريعها ومسن والدها والأمراض التي يمكن مصاباً بها وعدد الورثة الذين يتربكهم بعد موته.. إلخ. معلومات لا يفكّر في جمعها أشد المرابين احتياطاً إذا أفترض ملغاً جسمياً يدون تأميناً.

## الصحاب المُتّبعة

رأيت يوماً في شارع الدواوين امرأة تمشي وأمامها خادم، يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة طولية القامة ممتلئة الجسم عمرها

بين العشرين والثلاثين ، في وسطها حزام من الجلد مشدود على  
 خصر رفيع وملاءة منضبة على جسمها انتباها ناما ، الجزء الأسفل  
 بارز عند الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل ،  
 والقسم الأعلى غير مستور ، وإنما الملاءة مشبوبة في رأسها  
 مسدولة على كتفيها وذراعيها إلى المرفقين ، على وجهها قطعة من  
 المسلمين الرقيق أقل عرضة من الوجه ، تحجب فاها وذقنها حجابا  
 لطيفا شفافا كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر ، وترك  
 العيون والواحجب والجبهة والشعر إلى منتصف الرأس مكشوفة .  
 كانت تمشي خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجأ كما تفعل  
 الراقصة على المسرح ، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة  
 وترفعها كذلك ، وترسل إلى المارة نظرات دعاية ورحاوة وحنان  
 واستسلام ، وبالإجمال كان مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم

\* \* \*

كتبت والدة من قدماء المصريين على قبر ابنتها : «من انتهك  
 حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت من يحبهم ! ». كلمة خرجت  
 من نفس ذات لام الحياة بجميع أنواعها ودرجاتها ، كلمة يفرغ  
 من هولها كل من فارق عزيزا محبوبا .

\* \* \*

\* لا فرق بين من يفضي سراً أو تخون عليه وبين من يختلس مالاً  
 أودع عنده .

\* \* \*

## \* الزواج

المصريون الذين يفهمون أن للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع المؤقت هم تابعون لقانون الحب والأمانة والإخلاص لنسائهم وأولادهم، قانون أعلى من مبادئ حب الذات التي وضعها بعض فقهائهم.

ما دام الطلاق متزولاً إلى رأي الزوج يستحيل أن يثبت في نفوس الرجال والنساء أن أساس الزواج فكرة الاستمرار والمعاشة إلى آخر الحياة.

\* \* \*

الزواج عندنا حبالة رجل لامرأة يوماً أو شهراً أو ستة أو عدة سنين، حبالة تنتهي بمحرد إرادة الرجل، ولا فرق بينها وبين الحبالة غير الشرعية ما حاز للمرجل أن يدفع زوجته إلى الباب ويقول لها: اخرجي.

\* \* \*

السيدة علامة النفس الشريفة.

## \* التربية

يولد الإنسان شريراً خبيثاً فاسداً محتالاً كذوباً، الولد الصغير لا يدرك إلا نفسه ولا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ولا يتآلم إلا من نفسه، وفيه أثرة هائلة لا حد لها، هذه العيوب تنمو مع

ال طفل ، وتبقى فيه حتى يصل إلى سن الرجال ، فيتعلم كيف يخفى ، يحسن ظاهره ويستر باطنه . أعظم ما تتوجه التربية الحية إذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة ، ولكنها لا تستطيع أن تقطع جذورها .

\* \* \*

### \* الوطنية \*

من ذا الذي ينكر على المصريين تقدّمهم في الإحساس الوطني؟ عاشر آباءنا وتعلموا وأشغلوا بالصناعة والتجارة ، وخدموا أمتهم وفتحوا البلاد وحاربوا الأعداء ، ولم تسمع عنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة ، أما الآن فما فرأت ، وفي أي مكان ، وجدت لا أسمع إلا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفاني في خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة الوطنية وحزن الوطن والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التي تشغّل وتبيع وتعالج وتربيح لخدمة الوطن . صار حب الوطن ديناً جديداً ، من اعتقاده ربح ومن بعد عنه خسرو ، صار كعصارة الطماطم يوضع في كل شيء ليكسبه ذوقاً حامضاً يجعل تناوله سهلاً مقبولاً !

### \* التقى \*

أردنا أن نحصي تقلبات أحد معارفنا في آرائه العمومية . فوجدنا أنه كان عرابياً ، فلما انتهت الثورة بالفشل صار يطلب

السجن والشق لشركائه وأصحابه! وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين، فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم إلى أعدائه، وصار أكثرهم سفاهة في الطعن عليه! وهو كما يعرف جميع زواديا قصر عابدين لا يجهل شيئاً من قصر الدوبار! كان يتزور إلى أحد أصحاب الجرائد، ويملأ بأفكاره وأخباره، ثم قطع كل علاقة به وتحول إلى أشد خصومه! فأخيراً، اشتراك في تأسيس جريدين مبدأ كل منهما مختلف لآخر! ومن المؤكدر أن خاتمة حياته ستكون حميدة: لأنها مني شعر بقرب ملاقاة ربه نقرب إليه بالدعاء والصلوة!

### \* اللذة الحقيقية

اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا عنو النصب، ولا شيء من الأشياء التي تجري وراءها الناس عادة، وإنما هي أن يكون الإنسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم.

### \* البلاغة

الكاتب الحقيقي يجتنب استعمال المترادفات، فلا يأتي باسمين مختلفين لمعنى واحد في مكان واحد، لأن ذلك يكون حشراً في الكلام مستهجنًا، ودليلًا على فقر في الفكر والخيال، ولكن إذا كان المقال يستدعي ذكر عدة معانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد، فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن، وقد يكون مطلوبًا إذا

كأن لا زمان تسهيل فهمها أو إظهار الفروق التي بينها. كذلك الكاتب المجيد لا يضع صفة بجانب الاسم إذا إلا اقتضي الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع. على أن الاعتماد على ذكر الصفات والابالغة فيها بقصد التأثير هو أقل درجات فن الكتابة، ويفصلها بكثير طريقة الكتاب الغربي الذي يعولون في الوصف على ذكر الواقع وشرح ضرورتها وتحليلها خليلاً دقيقاً، أو تشريح الإيمان وفتح جوفه وكشف ما خفي عن أعصابه ومسير غور أحشائه والتسميع على نفسه لإدراك ما يدب فيها من التزعات والخواطر والأمبال والحركات، ويوصف منظر الشيء به بكله التام بأجزائه كلها ليحدث في نفس القارئ أو السامع صورة كاملة وشعوراً تاماً وأثراً باقياً.

## ﴿ جنائزه ﴾

مارأيت جنائزه مسلم إلا أخجلني منظرها، هذه الجمال التي تحمل القواكه ويلتف حولها الأطفال والراغبون ويتشاجرون على اختلاف ما يلقى لهم منها على الأرض، وهذه الجاموسية المسكبة التي يرافقها الجائعون والشحاذون ويتصاربون على قسمتها قبل أن تموت، وهذه الأفقياء الذين يجر بعضهم بعضاً وليس فيهم إلا الأعمى والأعوج والأعور، ويمشون بسرعة غير منتظمة، لا يسيرون شيئاً فلدة! صاحبين بأصوات مزعجة، كلمات تخرج من حناجر مختنقة بغمات شنيعة، وهذا النعش المحمول الذي ينخبط فيه الميت ويلتفت تارة إلى جهة اليمن ونارة إلى جهة الشمال، وأحياناً يطير في السماء إن كان من الأولياء المقربين!

وهو لاء النسوة اللاتي صبغن أيديهن ووجوههن، وعفرن بالتراب رءوسهن، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه بآيات مربعة مصحوبة بالفاظ مرتبة، ما هذا كله؟ أم جمجم مجانين، أم تفربهم من الشياطين؟ ألمبة أطفال، أم معرضن كرنفال؟!

في الجنازة التي تمر في الطريق شيء من جميع ذلك، ولا ينفعها إلا أمر واحد وضعت لأجله هو: إظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون.

\* \* \*

لما كنت في الأستانة توفى في الليل بغية رجل كان بيته ملاصقاً لبيتنا، فلم أسمع عوياً ولا، ولم تشعر بحركة غير اعتيادية، وفي الصبح خرج النعش ونقل الميت إلى القرافة مشيعاً بأقاربه وأصحابه من الرجال فقط، ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن أو بذكر الله أو بالصلوة على النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بل كانوا يسيرون صامتين خاشعين مطأطعين رءوسهم، فلما انتهوا من دفنه عاد أهل الميت إلى بيتهم وأغلقوا الباب كعادتهم.

### \* شراهة \*

دعينا للعشاء عندم، باشا، وكنا ستة أو سبعة من الأصحاب، مسرورين باجتماعنا، مستعدين للتمتع بمسامرة قديمة مجردة عن التكلف، وبينما نحن متوجهون إلى قاعة الطعام إذ دخل علينا زائر

من المشائخ، فاضطر صاحب المترول إلى أن يدعوه إلى الأكل معنا، فدخل أمامنا، واختار لنفسه أحسن مكان، وكان أول الحائسين، جلس على الكرسي الفرنساء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله، ثم برم كم القفطان والقميص الذي تحته برمًا محكمًا، فانكشف الساعد إلى المرقق، فتمثل لي جالسًا في مكان من الميساء يستعد للموضوع! اشتغل بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصح لحديث، ولا كان بعيدًا عن المائدة كان كلما يتناول شيئاً من الطعام يستطع بعده إلى ملابسه، وكان يلقى الطعام على مفرش المائدة، فلما امتلا بطنه أخذ ينكس أستانه، ويخرج منها فضلات الأكل، فيقذفها من فمه بقوة عيناً وشمالاً.

وبينما نحن شاهدون إني حركات هذا الشيخ صاح أحدنا - أو يا عيني - وقام وأضع يده على عينيه فالتقطنا حوله وسألنا الخبر، فأخبرت بأن قطعة من العظم دخلت في عينيه، فتأملنا فلم نجد فيها أثراً، فضحك وقال: إنها نفذت فيها وخرجت من الجائب الآخر!

### \* الشكل والجوهر

كما رأى الناس أن حالتهم العمومية أصحت على غير ما يحسبون، ظنوا أن العيب في النظام لا في الرجال، وفكروا في وضع قواعد جديدة للسياسة والإدارة والقضاء، مؤمنين أن يجدوا الإصلاح الكبير.

مثلهم كساكن بيت ضعفت جسمه الرطوبية، فراراد أن

يُتخلص منها فغير أثاث البيت ورتبه على غير الشكل الأول،  
تعب ضائع.

### \* الرغبة والاستعداد \*

بنتي الصغيرة التي عمرها خمس سنين تظن أنه يمكنها أن تأتني  
بنفسها كل ما تراني أعمله، فإذا أمسكتها من يديها ورفعتها من  
الأرض لا تقبلا تقول لي: أنا أيضاً أرفعك، وتسكني يديها من  
أفالادي وتجدها نفسها حتى يتحقق وجهها التحملى كما حملتها،  
وإذا رأت أن رجلاً غير فتاة ماء بوثة تحفزت لتفعل مثله، تظن  
أن كل ما ترغبه جائز سهل، كذلك الرجل الجاهل، يخيل له أنه  
كفاء لأصعب الأعمال، ومستحق لأصعب الملاصب، ومساوا  
لأرقى الرجال، يظن أنه منح استعداداً فطرياً، يجعله قديراً على  
كل شيء، يظن أنه يطيق كل ما يريد.

\* \* \*

### \* عريس \*

كنت في ليلة فرح، وكانت الحفلة من أفحى وأجمل ما رأيت  
من نوعها، أنفق فيها الذهب بلا حساب، وعند العاشرة دخل  
العروسان، وصدقحت الموسيقى إعلاناً بذلك، فقللت لصديق كان  
جالساً بجانبي: هذا إعلان لعامة الحاضرين بأمر سليم بين  
الزوجين، كان من حسن الذوق أن يبقى مستوراً، وما أحسن ما  
اعتده الغربيون، فإن الزوجين منهم يكونان مع المدعويين إذا بهما

قد اخفيتني عن أعين الحاضرين بدون أن يشعر بهم أحد، ويعينها  
عدة أسابيع، فوافقتني صديقى على ذلك ثم قال: أريد أن أقص  
عليك لهذه المناسبة شيئاً رأيته يعني؟ قلت: نعم، فقال:

كان سني لا يتجاوز تسع سنين، ولا تزال صورة الواقعية التي  
ساقصها الآن محفوظة في ذاكرتى كمالاً و كانت حصلت منذ  
أسبوع. كان المترجل المقابل لمترجلنا يستعد شيئاً فشيئاً لحفلة كبيرة.  
نصبوا من أجلها سرادقاً واسعاً، ووضعوا فيه الكراسي المذهبة.  
وعلقوا البيارق والمنجف، وكل يوم يمر يزيد في رونق الزينة  
وترتيبها، فلما جاءت الذلة الكبيرة أخصت الشموع، وصدقحت  
نغمات الموسيقى، وتقاطرعت وغزود الرجال والنساء إلى البيت.  
يدخلون منه آفواجاً، فيجلس الرجال في الصبوران، وتحتفظ  
النساء في بيت الحريم الذي كانت تستطع فيه الأنوار وتحرج من  
تواقدده، ونحو سكان هذا الشارع الصغار عشرين أو ثلاثة طفلاً  
من كل سن كنا أول المترجلين وأكثرهم تبعاً، فرحب بهم بهذه المناسبة  
الراقية والأنوار الذهبية والأضواء المشتقة، الجلس ونقوم ونحرى  
ونضحك ونشاجر، سكارى من ضروريات الأصوات وضياء  
الأنوار.

فلما زف العروس بعد العشاء على الطريقة المعهودة، دخل إلى  
البيت ودخل وراءه بعض الأولاد وكانت من بينهم، فرأيت سليم  
المترجل وفسحة الدور الأولى مملوءة بالنساء وهن يتراحمون للموصول  
إلى الصيف الأولى ليشاهدن العروس داخلاً. وكان أحد أقاربه  
ماشياً أمامه، فصار يدفعهن بيديه ليخلل لـ الطريقة حتى وصل

إلى غرفة عروسه، فادخل فيها وأقفل الباب عليه، وحيثئذ وقف النسوة أمام الباب كأنهن يترقين حادثاً كبيراً، وهذا لم ينفعهن من المحادثة والمجادلة والضحك على شكل غير منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن تسمع، ومن حين إلى حين تناولن إحداهم: «هس يا سبات» وتستمر هي في الكلام أكثر من غيرها. ما الزمن الذي مضى ونحن على هذا الحال! لا أدرى. ثم سمعت صياحاً منكراً أتى من داخل الغرفة، فازداد الفلق والاضطراب بين جماعة النساء، وما زال يتضاعف حتى أدى بهن إلى الدق على الباب، وبعد برهة فتح الرجل الباب وظهر عارى النساء بارق العينين محتقراً الوجه، وتكلم مع أمه وأم زوجه كلاماً شديداً مصحوباً بإشارات الغضب، ومن وقت لآخر كان يقول: «ماذا أصنع، لا أقدر، وبعد مداونة صغيرة رجع ودخلت وراء المرأة، وتبعه الجيش الذي كان واقعاً وراء الباب مدفعاً على السبيل، وقد جريت معهم حتى صررت قريباً من التمرين، فرأيت العجوزين قعدتا على صدر البنت، وقبضت إحداهما على ذراعيها، والأخرى على فخذيها، فزاد صياح البنت، و بكاءها، وتقدم الرجل وبهذه خرقه بيضاء، رأيتها بعد ذلك ملوثة بالدم، فخرجت هارباً من هذا المنظر الشنيع، لا أشك أنهم ذبحوها!»

### • التحرر

في تعبيد الاستبداد في الوقت الذي كانت فيه كلمة محمد على أو إسماعيل نكفي لإعدام من يغضب عليه أو إرساله إلى البحر الأبيض، في تلك الأيام السوداء التي كانت فيها حبّة الإنسان

وحربيته وأمواله مهددة بأثر المخطر ، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه في الوجود ضمانة تحميه ، في ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم إلى ضد إرادة الحاكم والتصرّع برأيهم .

واليوم زالت أسباب الخوف من الحاكم ، فهل زادت قدرة الناس على المحاجة بالحق والتصرّع برأيهم ؟ من ينظر نظرة سطحية يظن أننا بلغنا من استقلال الرأي مبلغا لا ينافسنا فيه أحد ، حيث لا يجد من الأمة أدنى أثر للمخوف من الحكومة ، بل يرى بالعكس أن الاستخفاف بها صار عاما ، وأنه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم ، اللهم إلا إذا كان جاويس البوليس أو خفيف الترعة !

ولكنه إذا حقق التلerner لا يليث أن يرى حرية الانتقاد لم تستعمل إلى الآن في أعمال الحكومة إلا لأن هذه النغمة الجديدة تطرب أذان السامعين وتفتح قلوبهم وجذورهم .

أما المسائل الأخرى : الدينية والاجتماعية والمتصلة بالأحوال الشخصية والعادات والأخلاق ، فلم ينجده فكر الباحثين إلى انتقادها ، فهل لم ير أحد منهم فيها عيبا يستنكر ؟ كلا ! وإنما هم يرون العيوب ولا يجرؤون على إظهارها .

### \* المشروعات الخيرية

قال أحد أعيان الأقاليم : في هذه الأيام كثرت فيها الافتتاحات للجمعيات الخيرية والمدارس والكتاتيب والمستشفيات ولا يجد يده

أحد من الأمراء والذوات وكبار الموظفين والأغنياء المقيمين في العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزءاً من مغارتها، يجب على محمد القرى وأعيانها أن ينشئوا جمعية للدفاع عن أمورهم، يسمونها جمعية منكتوب المشروقات الخيرية!

\* كلها قدرت على أن أقوم بخدمة طلبها حتى صدق أشتغل على خسارته وعدهته عدوًّا جديداً.

### ٤٠٣ قادتنا

ليس في فظر عالم محيط بجميع العلم الإنساني، وليس بيته من شخص يفرغ مخصوص في العلم ووقف نفسه على الإمام بجميع ما يتعلّق به، ولم يظهر هنا في السوق اكتتب شهادة عامة ولا كاتب ذاع صيته، مثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الأمم الأخرى والمرتبدون إلى طريق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها، فإذا عدتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والسياسيون المشعوذون، والحقيقة المجردة من الأوهام والأغراض أن كلام ما وجد في مصر من الخير والنظام والعدل لم يوجد وإنما يستمر إلا بعمل الأجنبي وعلى رغم أهلها.

### \* طالب وظيفة

زارني أحد أصحابي، وكان يرافقه شاب من أقاربه أنه في هذه السنة دروسه، وطلب منه أن توسط له ليحصل على وظيفة، فهدى إلى هذا الشاب مسروراً، فوضع فيها بدأ فاتحة

وسمحها بسرعة، أشرت عليه بالجلوس على كرسي فاستحسن أن يجلس على «الكتبا» التي أردت أن أخص قريبه بها، وقبل أن يجلس شمس بنطلونه بعد أن تحقق من النظام تنايه، ثم قعد ووضع رجلاً على الأخرى، سالته عن الوظيفة التي يرغبه، فعلمت أنه يريد أن يعين في وظيفة مرتبها خمسة وعشرين جنيهاً في الشهر، ففهمته أنه يطلب المجال، وأن لواحة الحكومة لا تحيط بهذا الطلب، فلم يقنع، وأخذ يقيم الأدلة على أن الحكومة إذا شاءت يمكنها أن تعينه بطريقة استثنائية، فقلت له: ولكن ما هي المسوغات التي تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذي تطلب أن تجتمع به؟ فقال: كفاءتي، فقطعت عليه الكلام، وكررت له أن طلبه غير مقبول، فحوال وجهه عنى وأخذ يقتل شاربه بحركة عصبية ثم التفت إلى وفالي، المجنون، نهارك سعيداً وخرج، وتبعه قريبه بعد أن اعتذر لي بكلمتين، فلما خرج جاسرح فكرت فيما سمعت ورأيت، وتأملت في حال هذا الشاب، ووردت على خاطري أحوال آخر وقعت من أمثاله معى ومع غيري، أحوال تدلر بوجود حالة أدبية سيئة عند الكثير من شبابنا، يجعلهم صناعاً لا يشبهون معها شبيبة أجيال الماضي التي عاشرت كثيراً من أفرادها، ولا الشبيبة التي عرفتها في البلاد الغربية والاحتللت بها زماناً، هذه الواقعة حركت في نفسي حباتي الماضية، ومشلت في ذاكرتى صور شبان محبيين منحليين بالأداب والحياء والتوافع والانقياد، وكانت مع ذلك لا يقصون من جهة المعارف عما يتحصله الشباب في هذه الأيام، وإن الفرق هو أن الشيء القليل

الذى يتعلمه الشاب فى هذا الزمن يتورم فى مخه حتى يسد فراغه  
ويجعله يتخيل أنه يحمل كنوز السماء والأرض .

\* \* \*

### \* العبرية \*

العقل والجتون شيئاً متصاداً، ولكن حدودهما متجانسة  
مختلفة . وفي الحقيقة لا يعرف أحد أين يتنهى العقل وأنى يتتدى  
الجتون ، إن كان التوازن بين قوى النفس هو علامة العقل ، فالنوع  
في المدارك وأخيال غالباً نتيجة اختلال في هذا التوازن .

يظهر أثر ذلك عند الكثير من أعاذه الرجال المصايبين بشذوذ  
في الأخلاق أو نوب عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة  
والخرافات الصبيانية أو إفراط مغيب في تطلب الشهوات أو  
بالانفصال عن الناس والتوصّل أو بزيف في الحواس عن القوانين  
الطبيعية أو بأى أمر آخر يكون عنده مخالفًا أو زاندًا عما تشاهد  
عند متوسط الحال في الذكاء والإحساس .

ربما كان الإبداع في الاختراع والتاليف وما يستلزم من احتمال  
النخ وإشغال الذهن وحصر الفكر وتأثر الأعصاب والجهد في  
توليد المعانى من أسباب تعاظم هذا الشذوذ الذي يجعل الناتجة  
إنساناً غريباً زاندًا من جهة وناقصاً من جهة أخرى .

\* \* \*

معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر

## «مصطفى كامل»

١١ فبراير سنة ١٩٠٨، يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق. المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي.

رأيت عند كل شخص تقابلت معه قليلاً مجرّحاً، وزوراً مخنوّقاً ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشيء من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلّمون بصوت خافت، وعبارات متقطعة، وهيئة يائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت، كأنما كانت أرواح المشفوقيّن تطوف في كل المدينة.

ولكن هذا الاتّحاد في الشعور يقى مكتوماً في التفوس، لم يجد سبلاً يخرج منه، فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان.

أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله، وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمة، ووصل صدّي دويها إلى جميع أنحاء القطر.

هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي ينتسم في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل!

## المصادر

- الزركلي : (الأعلام) ، طبعة بيروت .
- سركيس : (معجم المطبوعات العربية والمعربة) ، طبعة القاهرة . ١٩٢٨ .
- الطهطاوى : (الأعمال الكاملة) ، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة ، طبعة المؤسسة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٣ .
- قاسم أمين : (الأعمال الكاملة) ، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة ، طبعة المؤسسة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٦ .
- كحاله : (معجم المؤلفين) طبعة دمشق .
- الكواكبي : (الأعمال الكاملة) ، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة ، طبعة المؤسسة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٥ .
- محمد حسين هيكل (دكتور) : (نراجم مصرية وغربية) ، طبعة القاهرة ، مطبعة مصر ، بدون تاريخ .
- محمد عبد الله (الأستاذ الإمام) : (الأعمال الكاملة) ، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة ، طبعة المؤسسة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٢ .

- محمد فؤاد عبد الباقي : (المعجم المفهرس للفاظ القرآن الكريم) ، طبعة دار الشعب ، القاهرة .
- المعري (أبو العلاء) : (لزوم ما لا يلزم) تحقيق: أمين عبد العزيز الحانجى ، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤ .
- الموسوعة العربية الميسرة: طبعة القاهرة، الثانية .

- ❖ إن الخلاف شديد حول قاسم أمين<sup>١٥</sup>..
- ❖ هل هو ،ناقدة للتغريب، هبّت منها رياح ،التحلل، على عالم المرأة المسلمة<sup>١٦</sup>..
- ❖ أم هو بطل التحرير للمرأة من ،أخلال عصر الحرير،<sup>١٧</sup>
- ❖ ثم.. ماذا عن رأيه في ،التمدن الإسلامى<sup>١٨</sup>... وهي صفحة في فكره، يجهلها الكثيرون<sup>١٩</sup>..
- ❖ إنها، إذن، قراءة جديدة، ومتقدمة لقاسم أمين يقدمها هذا الكتاب.

